ملخص البحث:
تهدف هذ الدراسة إلى إبراز التقنيات الحجاجية في النص الشعري الجاهلي متمثلاً في شعر الحارث بن عباد بوصفه نموذجاً مختلفاً من شعر الحروب في العصر الجاهلي؛ من حيث أن أغلبه قيل في حرب البسوس، ويكاد يكون تصويرا لكثير من أيامها، وقد اعتمد الحارث فيه وجوها حجاجية تهدف إلى التأثير والإقناع؛ كان فيها مدافعا عن آرائه ومعتقداته بهدف إقناع الآخرين بها، أو عارضا لموقفه المغاير من الحرب التي طالما حذر قومه من عواقبها، أو مستثيرا لعزيمة قومه ومُحثهم على القتال، أو محاولا إرهاب الأعداء من خلال استعراض عدة الحرب وعتادها، أو مفتخرا بالانتصارات التي حققها قومه في وقائع وأيام هذه الحرب، وهذا ما دفعني إلى دراسته حجاجيا والكشف عن خباياه من هذه الناحية.
الكلمات المفتاحية: تقنيات الحِجَاج، الشعر الجاهلي ، أيام العرب، حرب البسوس، الحارث بن عباد، .
Abstract:
This study aims to highlight the argumentative techniques of pre-Islamic poetry, focusing on the poetry of Al-Harith bin Abbad, which serves as a unique example of war poetry in the pre-Islamic era. Most of Al-Harith poetry revolves around the Battle of Al-Basous, providing a vivid depiction of various facets of this war. In his poetry, Al-Harith employed various argumentative techniques with a view to effecting influence and persuasion. These techniques served different purposes, such as defending his opinions and beliefs for convincing others to adopt them, exposing his opposing stance of this war, which he consistently warned his people about its consequences, stirring their determination, and motivating them to engage in battle. Through these techniques, he sought to instill fear in his enemies by elaborating on the arsenal and tactics of war and taking pride in recounting the victories achieved by his people during the events and days of these wars. These diverse purposes have prompted me to explore the argumentative techniques Al-Harith employed in his poetry, aiming to uncover its intricacies from this perspective.
Keywords: Argumentative techniques, Pre-Islamic poetry, Arab days, Al-Basous war, Al-Harith bin Abbad

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وآله وصحبه أجمعين، وبعد ،،،،،،،،،

فيعد الشعر – فن العربية الأول – المرآة التي انعكس عليها حال المجتمع الجاهلي في سلمه وحربه، ويأتي الشعر الذي قيل في أيام العرب في مقدمة الأشعار التي تعطينا صورة واضحة عن هذا المجتمع، وما كان يعج به من حروب طاحنة بين قبائل العرب أنفسهم، أو بين العرب وغيرهم من الأمم الأخرى.

ولا ريب أن العرب قد تجهزوا لهذه الوقائع بالأسلحة الكاملة، وكان الشعر في مقدمتها، فقد واكب جميع وقائع القوم ومعاركهم، بل هو الذي أذكي جذوتها في كثير من الأحايين، وكان للشعراء دور في هذه الحروب لا يقل أهمية عن دور الفرسان فيها؛ حيث يلهبون بأشعارهم أنفس المقاتلين، ويحثونهم على القتال، ويفاخرون بالانتصارات التي حققها جيشهم على الأعداء، معتمدين في ذلك كله على الجانب الإقناعي في الشعر إلى الجانب التأثيري الجمالي.

وقد اشتهر بين قبائل العرب مجموعة من الأشراف الحكماء، والفرسان الشعراء، لما عرفوا به من نصاحة الرأي، ومهارة في شئون الحرب، إضافة إلى قولهم الشعر، فكانوا يدافعون عن أقوامهم باللسان مثلما يذودون عنهم بالسيف والسنان، ويعد الحارث بن عباد أحد أبرز هؤلاء الفرسان الشعراء ، فهو الذي أشعل نيران حرب البسوس بعدما كادت أن تخمد، ثأرا لابنه بجير، وأخذ يحرض قومه على القتال، ويدعوهم للثأر من المهلهل بن ربيعة وقبيلته تغلب.

والشعر موضوع الدراسة يعد نموذجًا مختلفًا من شعر الحروب في العصر الجاهلي؛ لاسيما أن أغلبه قيل في حرب البسوس، ويكاد يكون تصويرا لكثير من أيامها، غير أنه لم ينل حظاً وافيًا من الدراسة، وبخاصة في جوانبه الحجاجية، بالرغم من أن الحارث اعتمد فيه وجوها حجاجية تهدف إلى التأثير والإقناع، وهذا ما دفعني إلى دراسته حجاجيا، ومحاولة الكشف عن خباياه من هذه الناحية.

والبحث بهذا الطرح يهدف إلى دراسة تقنيات الحجاج التي استعان بها الحارث، في العبور من الجانب الجمالي التأثيري إلى الجانب الفكري الإقناعي، فجاءت الدراسة، لتعيد قراءة نصوصه الشعرية وتبحث في تقنيات حججها وطرائق حجاجها.

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المزج بين المنهج التحليلي الوصفي، الذي يقوم على وصف وتحليل بعض الظواهر اللغوية والبلاغية التي تشكلت منها الحجج، كما أفدت من المنهج التداولي

في تصنيف التقنيات الحجاجية في النصوص الشعرية، باعتبار الحجاج مبحثا من مباحث التداولية التي تعنى بالعلاقة بين المتكلم والسامع، ودور المقام أو السياق غير اللغوي في التواصل بينهما، متجاوزة بذلك أوجه القصور في النظريات الشكلية التي درست اللغة باعتبارها نظاما مغلقا على ذاته، فأغفلت – عن عمد – السياق الاجتماعي والثقافي التي تستخدم فيه اللغة.

ومن أبرز الدراسات السابقة التي تناولت شعر الحارث بن عباد، ما يأتي:

– الأفعال الكلامية في قصيدة الحارث بن عباد (قربا مربط النعامة مني) مقاربة لسانية تداولية، للباحثة: ياسمين سعد كليب، جامعة العلوم الإسلامية، ٢٠٢١م.

– جدلية الرثاء والوعيد بين قصيدتي النعامة والمشهر، للباحث، محمد أحمد حمدي عبدالحميد، مجلة كلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بالمنوفية،١٤٤٣هـ/٢٠٢١م.

– ظواهر العدول عن الأصل في شعر الحارث بن عباد (دراسة لغوية)، للباحث: عبدالله جبران عبدالله القحطاني، ماجستير، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الملك خالد، ١٤٤٠/١٤٤١هـ – ٢٠١٩/٢٠٢٠م.

– التكرار ودلالاته والتقديم والتأخير في شعر الحارث بن عباد، للباحثة: حنان مصطفى علي يوسف، مجلة كلية التربية، جامعة المنصورة،٢٠١٩م.

وجاءت الدراسة في تمهيد وثلاثة مباحث بين مقدمة وخاتمة.

– المقدمة : وبها التعرف على طبيعة الدراسة، وهدفها، ومنهجها، والدراسات السابقة.

– تمهيد: وجاء بعنوان: منطلقات تأسيسية ومفاهيم نظرية: وقد مثل مداخل تعريفية للدراسة، فألقى الضوء على المقصود بالحجاج وتقنياته، وأعطى لمحة تعريفية بالحارث بن عباد وعلاقته بحرب البسوس.

– المبحث الأول: وهو بعنوان: الطرائق الاتصالية للحجاج في شعر الحارث.

– المبحث الثاني: وجاء بعنوان: الطرائق الانفصالية للحجاج في شعر الحارث.

– المبحث الثالث: وعنوانه: العلاقات والروابط والعوامل الحجاجية في شعر الحارث.

– الخاتمة: لرصد أبرز ما أثمرته الدراسة من نتائج.

– ثبت المصادر والمراجع.

تمهيد

منطلقات تأسيسية ومفاهيم نظرية

أولًا : مفهوم الحجاج:

يرجع لفظ الحجاج في المعاجم اللغوية إلى مادة (حجج) التي تدور حول عدة معان متقاربة هي: الغلبة، والبرهان، والتخاصم، والجدل، والمنازعة، ففي معجم مقاييس اللغة: "يُقَالُ حَاجَجْتُ فُلَانًا فَحَجَجْتُهُ أَيْ غَلَبْتُهُ بِالْحُجَّةِ"(١).

ويقول ابن منظور: "الحُجَّةُ: البرهان، وقيل: الحُجَّة ما دُوفع بهِ الخَصْمُ، وقال الأزهريُّ: الحُجَّةُ الوجهُ الذي يكون به الظفرُ عندَ الخصومة. وهو رجل مِحجاجٌ أي جَدِلٌ، والتَّحاجُّ: التخاصم، وجمع الحُجَّة: حُجَجٌ وحِجاجٌ. وحاجَّهُ مُحاجَّةً وحِجاجاً: نازعهُ الحُجَّة"(٢).

وليس يبعد المفهوم الاصطلاحي للحجة أو الحجاج عن هذا المعاني اللغوية لدى العرب القدامى، فالحجاج عندهم يتمحور حول مفاهيم البيان واستعمال الدليل والبرهان، ومن أوائل الذين أشاروا إلى مفهوم الحجاج من البلاغيين القدامى الجاحظ حين عبر عنه من خلال البيان، الذي يعرفه بقوله: "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يزري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في هذا الموضع"(٣)؛ فمفهوم البيان عند الجاحظ تنازعه وظيفتان: إحداهما: إفهامية، تتصل بعناصر المقام وخصائصه، والثانية: حجاجية إقناعية، تقوم على الفصاحة وقوة الحجة وإحكامها(٤).

---

(١) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج٢، مادة (حج).

(٢) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب، دار صادر للنشر والتوزيع، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، ج٢، مادة (حجج).

(٣) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق/عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٩٩٨، ص٧٦.

(٤) ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة (بحث في بلاغة النقد المعاصر)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٨م، ص٢١٣.

أما أبو هلال العسكري، فقد أطلق عليه الاحتجاج، وجاء عنده بمفهوم البرهان والدليل، يقول: "هو أن تأتي بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر، يجري مجرى الاستشهاد على الأول، والحجة على صحته"(١).

ويجعل الإمام عبد القاهر الجرجاني الإفهام والإقناع من أهم الوظائف التي تحققها الاستعارة، فيقول: "أما الاستعارة فهي ضرب من التشبيه، والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول، وتُستفتى فيه الأفهام والأذهان"(٢)؛ فالاستعارة تتحدد مزيتها عند الإمام بما تحمله من طاقة حجاجية مدعومة بالدليل والبرهان، حيث يقول: "وأما الاستعارة فسبب ما ترى لها من المزية والفخامة أنك إذا قلت (رأيت أسدًا) كنت قد تلطفت لما أردت إثباته له من فرط الشجاعة حتى جعلتها كالشيء الذي يجب له الثبوت والحصول، وكالأمر الذي نصب له دليل يقطع بوجوده"(٣).

ويرى حازم القرطاجني – في إطار حديثه عن التخييل والإقناع – أن الخطاب الحجاجي هو ما يحتاج فيه المتكلم إلى وسائل إقناعية من أجل إقناع مخاطبه، حيث ميز بين وجهتين في طريقة الكلام لإظهار الموضوع، فيقول: "لما كان كل كلام يحتمل الصدق والكذب، إما يرد على جهة الإخبار والاقتصاص، وإما يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال، وكان اعتماد الصناعة الخطابية في أقاويلها على تقوية الظن، لا على إيقاع اليقين، اللهم إلا أن يعدل الخطيب بأقاويله عن الإقناع إلى التصديق، فإن للخطيب أن يلم بذلك في الحال بين الأحوال بين أقواله"(٤)، فثمة فارق عنده بين الأسلوب الخبري والأسلوب الحجاجي.

ويذكر ابن الأثير أنه لا قيمة للبلاغة بدون حجاجها أو إقناعها وتأثيرها في المتلقي، فمدار البلاغة عنده يقوم على "استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، وإذا حقق النظر فيه علم أن مدار البلاغة كلها عليه"(٥)، فالاستدراج عند ابن الأثير وجه من الوجوه البلاغية التي يقصد من ورائها المتكلم إقناع مخاطبه وحمله على الإذعان، فهو ضرب من الخداع اللفظي أو (مخادعات الأقوال) التي تقابل (مخادعات الأفعال).

---

(١) أبو هلال العسكري: الصناعتين(الكتابة والشعر)، علق عليه/ محمد أمين الخانجي، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، ط٢، (د.ت)، ص٤٠٣.

(٢) عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه/ محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، (د.ت)، ص٢٠.

(٣) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق/ محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، (د.ت)، ص٩، ١٠.

(٤) حازم القرطاجاني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق/ محمد الأمين بن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط٣، ٢٠٠٨م، ص٥٥.

(٥) ضياء الدين ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق/ كامل محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٨م، ص٤٨.

والذي يتضح مما سبق أن مفهوم الحجاج وإن ظهر لدى العرب القدامى غير محدد المعالم واضح الأطر والأركان، وهو في ذلك لا يختلف عن كثير من المفاهيم والمصطلحات في مدونة النقد العربي القديم، ولكن مفاهيم العرب قديما للحجاج تكاد تتفق على أن الحجاج وجه من وجوه البلاغة، كما جاء عند الجاحظ في حديثه عن البيان وآلياته التي راعى فيها المقام وأحوال المخاطبين بما يؤدي إلى الفهم والإفهام، والإقناع والإذعان، مقتربا في ذلك بصورة أو بأخرى من النظريات الحجاجية المعاصرة.

أما في اصطلاح الدارسات العربية الحديثة، فقد اختلف مفهوم الحجاج تبعا لتعدد استعماله وتباين حقوله في النظريات الغربية التي نقل عنها الدارسون العرب، كما توسع أصحاب هذه النظريات في مفهوم الحجاج؛ فجعلوا كل تعبير قولي – شعرًا ونثرًا – حجاجًا.

ومن أبرز هذه التعريفات أن الحجاج " كلّ منطوق بهِ موجّه إلى الغير، لإفهامه دعوى مخصوصة، يحقّ له الاعتراض عليها"(١).

ونصَّ صاحب كتاب (الحجاج مفهومه ومجالاته) على أن الحجاج: " طائفة من تقنيات الخطاب التي تقصد إلى استمالة المتلقين إلى القضايا التي تعرض عليهم أو إلى زيادة درجة تلك الاستمالة"(٢).

وبهذا يكون الحجاج خطابا تواصليا " يهدف إلى إقناع شخص أو مستمع أو جمهور ما بتبني موقف ما، أو مشاركة في رأي ما، ضمن إطار تواصلي يتجاوز مستوى التبليغ والإفهام، إلى مستوى التأثير والإقناع بتبني موقف أو رأي"(٣).

ومما يلاحظ على هذه التعريفات أنها تتمحور حول وظيفتين يضطلع بهما الحجاج، أولاهما: الوظيفة الإقناعية، فالحجاج وسيلة الإقناع وأداة المتكلم في سبيل بلوغ غايته والوصول إلى مراده في حمل المتلقي على الاقتناع والإذعان، والإقناع أو الاقتناع هو غاية الحجاج ومبتغاه.

والأخرى: الوظيفة التواصلية، فيعد الحجاج جانبًا مهمًا من جوانب التداولية وأبرز مجالاتها؛ لذا يرتبط مفهومه بمفهومها الذي يحدد بأنه " دراسة المعنى التواصلي أو معنى المرسل، في كيفية قدرته على إفهام المرسل إليه بدرجة تتجاوز معنى ما قاله"(٤).

---

(١) طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص٢٢٦.

(٢) حافظ إسماعيل علوي: الحجاج مفهومه ومجالاته (دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة)، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص٤.

(٣) آمال يوسف المغماسي: الحجاج في الحديث النبوي (دراسة تداولية)، الدار المتوسطة للنشر، ط١، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، ص٢٢.

(٤) عبد الهادي بن ظافر الشهري: إستراتيجيات الخطاب(مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م، ص٢٢.

مما سبق يتبين أن الحجاج عملية تواصلية بين طرفين، يسعى المرسل من خلالها إلى إقناع السامع أو المتلقي بقضية أو موقف ما، موظفًا تقنيات منطقية وآليات لغوية لتحقيق ذلك.

ثانيًا: ضوابط الحجاج :

ثمة مجموعة من الضوابط التي ينبغي توفرها في النص الحجاجي لكي يؤدي نتيجته المنشودة وفائدته المرجوة، ومن أبرز هذه الضوابط(١):

– دراية المرسل وإحاطته بالمستمع الذي يوجه إليه خطابه الحجاجي، ورصيده الثقافي والحضاري، وتطلعاته وطموحاته، لأن الخطأ في تصور هذا المستمع لا يوصل إلى النتائج المرجوة، فقد تكون عكس ما قصد من البداية.

– حسن تلاؤم الخطاب الحجاجي مع المقام، وموافقة الحجاج لما يقبله العقل، مع الموضوعية في الطرح وإبراز المتكلم لمدى اقتناعه في صحة ما يعتقده من نتائج، وظهور ذلك في واقعه العملي.

– سعي المتكلم إلى تحقيق مبدأ التعاون في أثناء الخطاب، كي لا يصبح الحجاج فرضا وإلزاما على المستمع، بل يترك المجال بين الأخذ والرد في الحوار، ليمكن عقل المستمع من الاندماج في الموضوع، وإعمال فكره في الاستنتاج والاستنباط.

– أن يكون الحجاج خاليا من الإبهام والمغالطة، واضح الصياغة، بأن تكون دلالة الألفاظ محددة، والمرجع الذي يحيل عليه الخطاب محددا، مع حسن تأديتها بعيدة عن الانفعال والتكلف؛ لأن هدفها استمالة مشاعر المتلقي وإثارة عواطفه ووجدانه، ولن يكون هناك استمالة ولا إثارة مع التكلف والإبهام.

– اختيار المتكلم المقدمات التي يبنى عليها حجاجه ويؤسس عليها حججه المختلفة، بأن تكون ملائمة للمقام ومنسجمة مع المتلقي؛ لأنه إذا توافق معها من بداية الطرح سيقبل الحجج التي تأسست عليها، وإذا لم يتوافق معها فلن يقبل حججها، وتقوم هذه المقدّمات على جملة من الوقائع والحقائق والمواضع المشتركة أو المبادئ العامة التي يقر بها ويعرفها الجميع، وكذلك منظومة الفضائل والقيم المتعارف عليها في مجتمع ما.

ثالثا: تقنيات الحجاج:

تنقسم تقنيات الحجاج التي يستخدمها المتكلم في تحقيق الإقناع قسمين رئيسين:

---

(١) ينظر: عبدالله صولة: في نظرية الحجاج: (دراسات وتطبيقات)، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط١، ٢٠١١م، ص٢٣–٣٠. وينظر: عبد العزيز مصباحي: الحجاج ووظائفه التداولية، مجلة علوم اللغة وآدابها، جامعة الوادي، ص٢٠٢، ٢٠٣.

أ- طرائق الوصل أو الاتصال: وهي التي تقرِّب بين الأفكار المتباينة، وتحاول إقامة علاقة ربط بينها، فيربط المحاجج بين أفكار أو أحكام مسلم بها وأخرى يسعى إلى تأسيسها وجعلها مقبولة ومسلما بها لدى المتلقي، وذلك من خلال دمج الأحكام المسلم بها وغير المسلم في بنية حجاجية متماسكة موحدة، بحيث لا يمكن التسليم بأحدها دون التسليم بالآخر(١). وتتأسس على هذا النوع ثلاث تقنيات حجاجية هي:

١- الحجج شبه المنطقية.

٢- الحجج التي تؤسس على بنية الواقع.

٣- الحجج التي تؤسس الواقع.

ب- طرائق الفصل أو الانفصال: ويعمد المحاجج فيها إلى ما يشكّل كلا لا يتجزأ فيحدث فصلا بين ظاهره وحقيقته، لغاية يقتضيها الحجاج، وهي تقويم موقف ما تقويما خاصا وتناوله تناولا ذاتيا يخالف ما يذهب إليه الكثيرون؛ كأن يقول: هذا الرجل ليس رجلا، أو يقول متحدثا عن وضع ما: ليس هكذا يكون العدل، عامدا بذلك إلى الفصل بين ظاهر الرجولة والعدل وحقيقتهما، أو يضيق المحاجج مفهوما من المفاهيم كالشجاعة أو الكرم من أجل إقصاء شخصا أو عدة أشخاص، أو يوسعه حينا آخر لكي يكون بإمكانه سحبه على من يريد(٢). ويتفرع عن هذا النوع تقنيتان رئيستان هما:

١- الحجج الموظفة للقيم.

٢- الحجج التي تستدعي المشترك.

وقد تأسست الدراسة على هذا التصنيف الذي اعتمده (برلمان) و(تيتيكاه) وعبَّر عنه الدكتور عبدالله صولة بقوله: "إن الأشكال الحجاجية التي يمكن اعتبارها مواضع حجاجية أو معاني حجاجية على نوعين، أي لها نوعان من الطرائق: طرائق الوصل أو الاتصال، وطرائق الفصل أو الانفصال"(٣).

---

(١) ينظر: عبدالله صولة: الحجاج في القرآن (من أهم خصائصه الأسلوبية)، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٧م، ص٣٢.

(٢) ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص١٢٧.

(٣) عبدالله صولة: الحجاج أطره ونظرياته، من خلال مصنف في الحجاج:الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتيكاه، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، فريق البحث في البلاغة والحجاج، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإسلامية، تونس، (د.ت)، ص٣٢٤.

رابعا: الحارث بن عباد وشعره:

أ- التعريف بالحارث:

إذا كان الغرض من الترجمة لحياة الشاعر[١] – وفقا للمنهج الذي اتخذته هذه الدراسة – يهدف إلى الكشف عن المقدمات أو المنطلقات الحجاجية التي انطلق منها الحارث في شعره، والتي تشّكل محل اتفاق بين المتلقين في تلك الفترة التاريخية، فإن أول ما يستوقف الباحث في حديث القدماء عن الشاعر، هو علاقته بحرب البسوس التي أفاضت المصادر وكتب الأخبار كثيرا في ذكرها، وسبب نشوبها وأحداثها، وهذه الأحداث والوقائع والحقائق هي التي تأسست عليها التقنيات الحجاجية المختلفة في شعر الحارث بن عباد.

وقد أوردت المصادر روايات طويلة مختلفة في أسباب نشوب هذه الحرب التي دامت لأربعين سنة[٢]، ومن جملة هذه الروايات أن ما أدى إلى نشوبها مقتل كليب ابن وائل على يد جساس بن مرة، فقد كانت لجساس خالة اسمها البسوس بنت منقذ، جاءت ونزلت عليه، فكانت جارة لبني مُرّة، وكان لها ناقة اسمها (سراب)، فلما مرت إبل جساس على كليب وفيها ناقة البسوس أنكرها، وقال أو بلغ أمر ابن السعدية – يقصد جساسا – أن يجير علي بغير إذني؟ وأمر غلامه أن يرمي ضرعها، فلما علم جساس بذلك لقي كليبا على مكان يسمى (غدير الذنائب) ودار بينهما حوار انتهى بأن طعن جساس كليبا برمح فقتله، وعندها اندلعت الحرب بين تغلب وبكر ثأرا لكليب[٣].

في بداية الحرب اعتزلت بعض بطون بكر هذه الحرب فكرهوا أن يكونوا عونا للتغلبيين على قتل إخوانهم، كما أعظموا قتل كليب وهو سيد من سادات العرب من أجل ناقة البسوس، وكان في مقدمتهم الحارث بن عباد، الذي اعتزل الحرب وأقسم ألا يشارك فيها هو ولا أحد من أهله وولده وأقاربه، وحل وتر رمحه، ونزع سنان قوسه، وقال قولته المشهورة: (لا ناقتي فيها ولا جملي)[٤].

---

(١) الحارث بن عباد – بضم العين وفتح الباء مع تخفيفها – بن قيس بن ثعلبة البكري، أبو منذر: حكيم جاهلي. كان شجاعا، من السادات، شاعرا. انتهت إليه إمرة بني ضبيعة وهو شاب. وفي أيامه كانت حرب (البسوس)، عمر الحارث طويلا، وتوفي نحو سنة ٥٠ ق م، ٥٧٠م. ينظر: خير الدين بن محمود بن محمد الزركلي الدمشقي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط١٥، أيار / مايو ٢٠٠٢م، ج٢، ص١٥٦.

(٢) أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ج١، ص١٣٣. وينظر: أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري: مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة ، بيروت، لبنان، (د.ت)، ج١، ص٣٧٤.

(٣) شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤ هـ، ج٦، ص٧١-٧٧.

(٤) أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال، ج٢، ص٣٩١.

ولم يزل الحارث معتزلًا الحرب حتى اجتمعت بنو بكر إليه وقالو له: قد فني قومك، فأرسل ابنه بجيرا إلى المهلهل بن ربيعة أخي كليب: إني قد اعتزلت قومي لأنهم ظلموك، وخليتك وإياهم، وقد أدركت ثأرك وقتلت قومك، فلما أتاه بجير طعنه المهلهل بالرمح فقتله وقال له (بُؤْ بشسع نعل كليب)[1].

فلما علم الحارث بمقتل ابنه بجير، ظن أن المهلهل قتله بأخيه كليب، وقال : نعم القتيل قتيل أصلح بين ابني وائل، فقيل له: إنما قتله بشسع نعل كليب، فلم يقبل ذلك، وأرسل إلى المهلهل: إن كنت قتلت بجيرًا بكليب، وانقطعت الحرب بينكم وبين إخوانكم فقد طابت نفسي بذلك، فأرسل إليه المهلهل: إنما قتلته بشسع نعل كليب، فغضب الحارث وارتجل قصيدته التي أعلن فيها اعتزامه المشاركة في حرب البسوس، ومنها [2]: (الخفيف)

قَرِّبـــا مَـــربَطَ النَعامَـــةِ مِنّـــي لَقِحَـــت حَـــربُ وائِـــلٍ عَـــن حِيـــالِ

فعلى وقائع وأحداث هذه الحرب تأسست المقدمات التي انطلق منها الحارث بن عباد في شعره، فوظف فيه جملة من الحقائق والوقائع والقيم والمواضع المشتركة المتفق عليها من المتلقين المستهدفين بشعره في ذلك الوقت، مثل تذكيره الجميع بأنه كان معتزلا تلك الحرب منذ بدايتها، ولكن تغلب هى من أجبرته على خوضها والانغماس فيها، بعد قتلهم لابنه بجير غدرا، وكذلك القيم التي وظفها في رثاء بجير ونشر فضائله وخصاله، والقيم والوقائع الموظفة في الفخر بالأيام التي كان النصر فيها حليفا لقبيلته بكر، وغير ذلك من المقدمات التي بنى عليها الحارث وجوها وتقنيات حجاجية كان فيها إما مدافعا عن آرائه ومعتقداته بهدف إقناع الآخرين بها، أو عارضا لموقفه المغاير من الحرب التي طالما اعتزلها وحذر قومه من عواقبها، أو مستثيرا لعزيمة قومه وحاثًّا لهم على القتال وإدراك ثأر بجير من قاتليه، أو محاولا إرهاب الأعداء من خلال استعراض عدة الحرب وأدوات القتال.

ب- شعر الحارث بن عباد:

تعرض شعر الحارث بن عباد - مثل غيره من الشعر الجاهلي – للتشكيك، فذهب بعض النقاد والدارسين إلى أن أغلبه موضوع مفتعل، مستندين في ذلك إلى أن كتاب (بكر وتغلب) الذي يعد المصدر الرئيس لأكثر شعر الحارث يعتمد – في أغلبه – على مرويات محمد بن إسحاق، وهو ممن اتُّهموا بنحل الشعر، كما ذهب ابن سلام الجمحي معممًا الحكم على كافة الأشعار المروية عن محمد

(١) ينظر: أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني: مجمع الأمثال، ج١، ص٣٧٤.

(٢) ديوان الحارث بن عباد: جمعه وحققه/ أنس عبدالهادي أبو هلال، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث- المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص١٩٩.

بن إسحاق، واصفًا إياها بأنها مصنوعة مفتعلة [١]، وقد أدى هذا التعميم إلى رفض ما جاء في هذا المصدر من أشعار، مما تسبب في إهمالها وجرَّ عليها كثيرا من الضيم والغبن.

وقد أورد محقق ديوان الحارث عدة أسباب حاول من خلالها أن يثبت صحة نسبة القسم الأكبر من هذه الأشعار إليه، ويمكن إجمالها فيما يأتي:

١- أن كتاب بكر وتغلب غير موثوق في نسبته إلى محمد بن إسحاق، ومما يرجح ذلك – عنده – أن أحدا من العلماء الذين ترجموا لابن إسحاق لم يذكر أن له كتابا في الحروب الجاهلية.

٢- لم يقدم القائلون بالانتحال في مرويات ابن إسحاق – كابن سلام وغيره – أمثلة واقعية للأبيات المشكوك في صحتها؛ كي تكون بمنزلة الدليل التطبيقي على صدق تلك الدعوى.

٣- وجود بعض العلماء القدامى والمحدثين الذين نسبوا غير قليل من هذا الشعر للحارث، وبخاصة أبيات قصيدته (قربا مربِط النعامة مني).

٤- أن وجود بعض مظاهر الركاكة والضعف في مواضع متفرقة من هذه الأشعار لا يقوى أن يكون دليلا واضحا على انتحالها؛ لأن المغالين فى القول بالنحل يقولون أيضًا إن واضعي الشعر الجاهلي كانوا قوما مشهودا لهم ببراعة النظم، حتى إنهم ليستطيعون مجاراة الشعراء الأصليين على اختلاف مشاربهم وبيئاتهم وموضوعاتهم، ومن ثم فإنه ليس من الضروري أن يكون الشعر المنحول ركيكًا ضعيف القيمة الفنية أو المضمونية، وكذلك ليس من الضروري أن يكون الشعر الجاهلي بعامة على الدرجة نفسها من الفنية والإتقان، كما أن الضعف في بعض هذه الأشعار يمكن أن يكون راجعا لما أصابها من تصحيف وتحريف نتيجة الإهمال.

ومهما يكن من شيء فإن ما يعنينا في هذه الدراسة ما تضمنه ديوان الحارث بن عباد من نصوص شعرية – بغض النظر عن مدى صحتها – استطاع الشاعر من خلالها أن يعطي صورة واضحة عن كثير من أيام حرب البسوس؛ وتطبيق تقنيات الحجاج على هذه النصوص؛ للكشف عما تحويه من وجوه حجاجية تهدف إلى التأثير والإقناع.

(١) ينظر: محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، ص٨،٩.

المبحث الأول

الطرائق الاتصالية للحجاج في شعر الحارث

ويربط المحاجج من خلال هذه الطرائق بين أفكار مسلم بها وأخرى يسعى إلى تأسيسها وجعلها مقبولة ومسلما بها، وذلك عن طريق دمجهما في بنية حجاجية متماسكة موحدة، بحيث لا يمكن التسليم بإحداها دون التسليم بالأخرى.

وتهدف التقنيات الحجاجية القائمة على الطرائق الاتصالية – وكذلك الانفصالية – إلى التأثير في المتلقي وإقناعه باتخاذ موقف ما تجاه قضية بعينها، ولتحقيق هذا الهدف فإن الحجج تعمل على مخاطبة عقل المتلقي، إلى جانب عاطفته ووجدانه، ويعتمد الشاعر في عرض فكرته أو حجته على الإفادة من إمكانيات اللغة وفق إستراتيجية إقناعية تحقق الاستمالة والتأثير ثم التغيير.

وبهذا فإن "الحجة – في النص الأدبي خاصة – لا تنفصل عن طريق صوغها، كما أن طاقتها الحجاجية لا تنفصل عن أثرها الجمالي الذي هو جوهر النص الشعري"(١)، ومن ثم "تزدوج أساليب الإقناع بأساليب الإمتاع فتكون إذ ذاك أقدر على التأثير في اعتقاد المخاطب، وتوجيه سلوكه لما يهبها هذا الإمتاع من قوة"(٢).

فالنص الشعري يعمل على استمالة المتلقي والتأثير فيه ومحاولة إقناعه من خلال توظيف الإمكانيات العقلية واللغوية "فتلتبس الوظيفة الإقناعية بالوظيفة الجمالية التباسا مثيرا على نحو يصعب معه الفصل بينهما، فيحدث التأثير المنشود في المتلقي، دون أن نجزم ما إذا كان هذا التأثير راجعا إلى الإقناع أو إلى الجمال"(٣).

ومن أبرز الخصائص الأسلوبية التي يستخدمها المحاجج في زيادة درجة الإقناع في الخطابات التداولية التكرار، فهو– من المنظور التداولي – "يؤتى به لتأكيد القول وتثبيته حينما يستلزم المقام ذلك"(٤)، لاسيما في الأساليب الحماسية التي تتجه إلى إثارة العواطف والمشاعر قبل العقل؛ ذلك أن

---

(١) محمد عبد الباسط عيد: في حجاج النص الشعري، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٣ م، ص٥٢.

(٢) طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ٢٠٠٠م، ص٣٨.

(٣) سامية الدريدي: الحجاج مولدا من مولدات الجمال في الشعر ، مجلة مجمع القاسمي للغة العربية، ع١٥، ١٤٤١هـ/٢٠٢٠م، ص٩١.

(٤) فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، ط١٠، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص٥٠٦.

التكرار "يتجاوز وظيفة الإخبار والإبلاغ إلى وظيفة التأثير والإقناع، بما يثير من دلالات الإلحاح والمبالغة في التأكيد، بل تدفع بعض حالات التكرير إلى تغيير سلوك المخاطب"(١).

ولهذا؛ يلاحظ كثرة تداول التكرار في شعر الحارث بن عباد بشكل لافت للنظر، بما يجعله أخص الخصائص الأسلوبية التي أقام عليها خطابه الإقناعي؛ بغية توكيد حججه، وإثارة انفعالات المتلقي، وتركيز اهتمامه، وتوجيهه نحو حدث ما، فضلا عن زيادة إمكانية توسيع خطابه التواصلي(٢).

وتأسيسا على ما سبق، فإن الدراسة في هذا المبحث ستقوم على دمج الحجج العقلية بالاختيارات الأسلوبية في النصوص الشعرية،؛ لمعرفة كيف حاولت التأثير في المخاطبين وحملهم على الإذعان والاقتناع.

أولًا: الحجج شبه المنطقية:

وهي التي أخذت من المنطق بنيته وشكله، ولكنها خالفته في كونها غير ملزمة كما هو الحال في القواعد المنطقية، فكل حجة من هذه الحجج وإن كانت "تستند إلى مبدأ منطقي، كالتطابق أو التعددية أو التناقض... ولكنها خلافًا للحجج المنطقية الخالصة يمكن أن ترد بيسر، بدعوى أنها ليست منطقية"(٣) ومن هنا جاءت تسميتها بالحجج شبه المنطقية، وهي تستمد قوتها الإقناعية من البعد العقلي الموجود في المنطق أو الرياضيات.

وينقسم هذا النوع من الحجج قسمين:

- الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البُنى المنطقية .
- الحجج شبه المنطقية التي تعتمد على العلاقات الرياضية.

١. الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البُنى المنطقية:

ومنها:

١-١- حجة التناقض وعدم الاتفاق:

---

(١) علي محمد علي سلمان: الحجاج عند البلاغيين العرب، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في الخطابة الجديدة، إشراف حافظ إسماعيل علوي، دار الروافد الثقافية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٣م، ص١٨٧.

(٢) ينظر: خالد العموش: الخطاب القرآني (دراسة في العلاقة بين النص والسياق)، جدار للكتاب العالمي، الأردن، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٢٤٣.

(٣) أوليفيي روبول: مدخل إلى الخطابة، ص١٧٤، نقلا عن سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي (بنيته وأساليبه)، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط٢، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص١٩١.

في هذه الحجة يعتمد المحاجج على "التعارض بين قضيتين في حجاج خصمه، أو بين فرضيتين يريد إقصاء إحداهما لإقناع مخاطبيه بالأخرى"[١] وذلك لاستحالة الجمع بينهما.

وقد عمد الحارث إلى استعمال هذه الحجة في قوله[٢]: (الخفيف)

لَـم أَكُـن مِـن جُناتِهـا عَلِـمَ اللَـ ـه وَإِنـي بِحَرِّهـا اليَـومَ صـالِ
قَـد تَجَنَّبـتُ وائِـلاً كَـي يُفيقـوا فَأَبَـت تَغلِـبٌ عَلَـيَّ اِعتِزالـي
فأنـابوا إلـيَّ كـي يقتلـوني وأطـاعوا مقالـة الجهّـال
وَأَشـابوا ذُؤابَتـي ببُجَيـرٍ قَتَلـوهُ ظُلمـاً بِغَيـرِ قِتـالِ

يذكِّر الشاعر قومه في هذه الأبيات بالوقائع التي حدثت بالفعل ويعرفها الجميع، وهي أنه كان معتزلا لهذه الحرب، ولكن تغلب هى من أبت عليه اعتزاله، ورجعوا إليه كي يقتلوه، وأشابوا شعر رأسه بقتلهم لولده غدرا، وقد اعتمد الحارث على حجة التناقض وعدم الاتفاق بين ما فعله هو منذ بدء الحرب، حين تجنبها ولم ينحز إلى طرف من أطرافها مقابل الآخر، وما فعله به التغلبيون من قتل ولده بجير غدرا في غير موقف القتال، وقد وضع الحارث بين يدي متلقيه هاتين الوضعيتين، محاولا عن طريق إبراز التناقض بينهما إقصاء مبدأ تجنب الحرب، وإثارة النفوس وشحذ الهمم لإدراك ثأر بجير.

ويلاحظ أن انتقاء الشاعر للأفعال الماضية في قوله: (تجنبت، أبت، أنابوا، أطاعوا، أشابوا، قتلوه) جاء ليعضد الوقائع التي أسس عليها الشاعر حجته، ويجعلها غير قابلة للدحض أو الشك، وكذلك فإن تكراره للفظ القتل بثلاث صيغ مختلفة (يقتلوني، قتلوه، قتال) يؤكد حقيقة تلك الوقائع، ويثبت قوة التجني والبغي الحاصل من قبيلة تغلب على الشاعر.

وقد اعتمد الشاعر الحجة نفسها في موضع آخر حيث يقول[٣]: (الوافر)

نَصَـحْتُ لتَغْلِـبٍ وكَفَفْـتُ عَـنْهُم ولَـم أَهْتِـكْ لهَـا حُـرمَ السُّـتُورِ
فأعْيَـتْ تَغْلِـبٌ وبَغَـتْ عَلَيْنَـا ولَـم تَحْـذَرْ معاقبـةَ الأُمُـورِ

وبالنظر في هذه الأبيات نجد أنها تبرز التناقض وعدم الاتفاق بين ما فعله الشاعر؛ حيث نصحه لقبيلة تغلب وكفه عنهم، وبين ما فعله التغلبيون من بغي عليه وقومه، وهذا التناقض يقود المتلقي

(١) محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص١٢٨.
(٢) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٣، ١٩٤.
(٣) ديوان الحارث بن عباد، ص١٧٦، ١٧٧.

إلى نتيجة واحدة ضمنية، وهي إثبات التجني الحاصل من قبيلة تغلب، ومجاوزتها الحد في ظلم الشاعر وقومه.

١-٢- العلاقة التبادلية:

و يحتكم المحاجج في هذه الحجة إلى مبدأ منطقي هو التبادل أو التماثل بين طرفين بغية "معالجة وضعيتين إحداهما بسبيل من الأخرى معالجةً واحدة، وهو ما يعني أن تينك الوضعيتين متماثلتان وإن بطريقة غير مباشرة"(١)، على غرار الآية الكريمة (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ)(٢).

وقد أسس الحارث بن عباد على هذه الحجة بيته الآتي(٣): (البسيط)

وقَـــد فَقَـــدنا أناسًـــا مـــن أماثِلِنَـــا ومـــثلهمْ فكـــذاك القـــومُ قـــد فَقَـــدُوا

ففي سياق المواساة وتعزية الذات والقوم فيمن فُقد من خيار القبيلة وسادتها جراء هذه الحرب الضروس يحتج الشاعر لما حدث عن طريق العلاقة التبادلية، حيث المماثلة بين وضعيتهم فيما حدث لهم من الفقد والقتل ووضعية أعدائهم التغلبيين الذين فقدوا هم الآخرون رجالا كثيرة من خيارهم وسادتهم، وقد أدى التقابل الناتج عن التكرار الاشتقاقي إلى إبراز كّلٍ من الوضعيتين في مقابل الأخرى، على نحو يحمل المتلقي على التأثير والاقتناع، فالوضعية الأولى تتمثل فى قوله بالشطر الأول: (فقدنا، أماثلنا)، ويقابلها فى الشطر الثاني وضعية أعدائهم متمثلة في قوله: (ومثلهم، وفقدوا)، وبهذا يزدوج أسلوب الإقناع بأسلوب الإمتاع في هذه الحجة، مما يجعلها أقدر على التأثير في المتلقي.

١-٣- التماثل والحد في الاتجاه:

في هذه الحُجَّة "يعمد المحتج لفكرة أو مبدأ إلى التعريف وضبط الحدود، تعريف المفاهيم أو الأشياء أو الأحداث والوقائع، ولكن ما يقدمه من تعريفات لا تنتمي البتة إلى نظام شكلي، بل تدَّعي قيامها بدور الضبط والتحديد، رغم افتقارها إلى الدقة والوضوح. هذا الضرب من التعريف شائع في خطابنا اليومي، كأن يقول أحدٌ (الدنيا هي الدنيا)، مقدما بذلك تعريف يفتقر إلى الصرامة

(١) عبدالله صولة: الحجاج أطره ونظرياته، من خلال مصنف في الحجاج : الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتيكاه، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص٣٢٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية١٤١.

(٣) ديوان الحارث بن عباد، ص١٥٩.

المنطقية وإلى الوضوح"[١]، وبذلك يكون هناك في هذه الحجة لفظتان متماثلتان هما (المعرَّف، والمعرِّف).

ويبني الحارث على هذه التقنية الحجاجية قوله[٢]: (البسيط)

أبَـــا عُقَيـــلٍ[٣] فـــلا تَفَخَّـــر بســـادتِكم فـــــأنتمُ أنْـــــتُمٌ والـــــدَّهرُ ينقلـــــبُ

ففي سياق الهجاء ينهى الحارث بن عباد أحد أفراد قبيلة تغلب عن الافتخار بسادته التغلبيين، ويحتج لذلك بأن ليس فيهم ما يستدعي الفخر، معتمدا على حجة التماثل في الحد من أجل التعريف بهم تعريفا لا يخلو من سخرية في قوله: (أنتم أنتم) أي أن قيمتكم ثابتة لا تتغير، وإن تغير الدهر وتغيرت السادات ظللتم على ما أنتم عليه من ضلال وسيئ خصال ، أو بقيتم كما أنتم بلا سادة تتفاخرون بهم حينما تتفاخر القبائل بساداتها.

وقد اضطلعت الاختيارات الأسلوبية للشاعر بدور مهم في رفد الحجاج في البيت، فصيغة النفي في قوله (لا تفخر) قد أظهرت الشاعر في صورة الحكيم الموجه، والمجرب الخبير الذي خبر هؤلاء القوم وخاض معهم من التجارب ما عرف به حقيقتهم، مما يجعل كلامه مقبولا ومقنعا، كما اضطلع الإيجاز في قوله (أنتم أنتم) بوظيفة حجاجية، من حيث لم يصرح الشاعر بأي من صفات هؤلاء القوم، وإنما أوجزها وأجملها معولا في ذلك على الإيحاء والتلميح، ففتح بذلك طريق التأويل والتخييل أمام المتلقي كي يتوصل إلي هذه الصفات بنفسه، وعندئذ يعسر عليه ردها وتكون أكثر إقناعا لديه، لأنه هو من توصل إليها، وحينئذ لا يجد له سبيلا سوى قبولها والاقتناع بها.

٢. الحجج شبه المنطقية التي تعتمد المعادلات الرياضية:

وهذه الحجج تقوم على "قواعد رياضية تشكل خلفيتها العميقة ونسيجها الداخلي، بل تؤسس طاقتها الحجاجيه، وتعد معينها الإقناعي"[٤].

وبتتبع هذا النوع من الحجاج في شعر الحارث وجدت منه ما يأتي :

٢-١ - حجة التقسيم أو (تقسيم الكل إلى أجزاءه):

يقوم هذا النوع من الحجج على تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له، وبيان أن حكما ما ينطبق على أي جزء من أجزائه ينطبق تبعاً لذلك على هذا الكل[٥]؛ والغاية من هذه الحجة "هو توجيه المتلقي

(١) أوليفيي روبول: مدخل إلى الخطابة، ص١٧٦ ، نقلا عن سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٢٠٠.

(٢) ديوان الحارث بن عباد، ص١٥٠.

(٣) لم أعثر له على تعريف في المصادر والمراجع التي تعرضت لحرب البسوس، أو قصيدة الحارث بن عباد.

(٤) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٢٠٣.

(٥) ينظر: سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٢٠٧.

واستدراجه إلى المقصود من نتائج الحجاج، فاعتقاد المتلقي بالحكم الموجه إلى الكل لا يمنعه من أن يعتقد الجزء منه"(١).

ومن ذلك قول الحارث(٢): (الخفيف)

فـــرعَ بَكـــرٍ وخَيرَهـــا كـــانَ فيهـــا وابـــنُ شَـــيخٍ مُبـــرّزٍ مِفضـــالِ

قَتَلـــوهُ بِشِســـعِ نَعـــلٍ كُلَيـــبٍ إنَّ قَتـــلَ الكَـــريمِ بِالشِســـعِ غـــالِي(٣)

فظاهر البيتين رثاء الشاعر لابنه المقتول، ولكن عمقهما استثارة همهم واستنفارهم للقتال ثأرا لبجير، وقد اعتمد الشاعر على حجة التقسيم في إقناعهم بذلك؛ فما بجير الذي قتله المهلهل في مقابل شسع نعل كليب، إلا فرع يرجع أصله إلى قبيلة بكر وواحد منهم، فضلا عن كونه ابن سيدهم المبرز المفضال، ومن ثم فإن الغدر ببجير والمهانة التي لحقت به تنسحب على كافة أفراد القبيلة ولا سبيل إلى محوها إلا الحرب وإدراك الثأر.

ولا يخفى الدور الذي قام به التكرار لمادة القتل في قوله: (قتلوه، قتل) وكذلك تكرار مادة شسع في قوله: (بشسع، بالشسع) وأثرهما في تقوية الإقناع وإثارة النفوس، حيث تأكيد معاني الإهانة وتقريرها في ذهن المتلقين، فقد كان هذا القتل غدرا، في غير موقف القتال، وفي مقابل شسع نعل كليب، وكأن هذه قيمة بجير وقيمة أبيه وقومه.

على أنه قد يكون لهذا النوع من الحجج استعمال آخر يتأتى من ناحية أن عرض أجزاء الشيء فيه برهنة على وجود مجموعه، بما معناه "إشعار الغير بوجود الشيء موضوع التقسيم من خلال التصريح بوجود أجزائه"(٤)، فعلى سبيل المثال برهنتنا لشخص ما على أن مدينة قد هدمت يكون من خلال تعداد الأحياء المتضررة تعدادا شاملا، لكن هذا التعداد الشامل لا يكون بغرض البرهنة على تضرر المدينة إذا كان المخاطب لا ينكر الضرر، وإنما يكون لغاية حجاجية أخرى هي إبراز حضور الأشياء(٥).

---

(١) حمدي منصور جودي: بنية الخطاب الحجاجي في كليلة ودمنة لابن المقفع، رسالة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، ص١٩٤.

(٢) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٤.

(٣) شسع النعل: قبالها الذي يشد إلى زمامها، والزمام: السير الذي يعقد فيه الشسع، ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ج٨، مادة (شسع).

(٤) عبدالله صولة: في نظرية الحجاج، ص٤٨.

(٥) ينظر: المرجع نفسه، والصفحة.

ونستشف هذا الاستعمال في قصيدة الحارث من خلال قوله[١] : (البسيط)

صَـــارُوا ثلاثـــةَ أثْـــلاثٍ فَثُلُـــثُهُمُ أســـرى تَنازَعَـــه الأغْـــلالُ والقِـــدَدُ[٢]

وثُلُـــثُهمْ جَـــزَرٌ صَـــرَعى تَنُوشُـــهُمُ عُـــرجُ الضِّـــباَع وزُرقُ الطَّيـــر والفُهُـــدُ[٣]

وقَـــدْ رفعنـــا عـــن البَـــاقِين رَحْمَهُـــمُ عَفَـــوًا غَفَرْنَـــا وفَضْـــلًا إذ هُـــمُ جُهِـــدُوا

فالأبيات قائمة في جوهرها على افتخار الشاعر بما أوقعه قومه في صفوف أعدائهم التغلبيين من هزيمة وقتل، ومن أجل تأكيد ما حدث والبرهنة عليه يصور الشاعر حالة الأعداء بعد الهزيمة وقد انقسموا ثلاثة أقسام؛ ثلث أسرى وضعت في أيديهم ورقابهم الأغلال والقيود، وثلث قتلى وجرحى في انتظار الضباع والفهود وجوارح الطير لتنهش أجسامهم، أما الثلث الأخير فقد عفا قوم الشاعر عنهم رحمة وشفقة بعدما بلغ منهم الجَهد مبلغه.

كما يظهر أيضا هذا الاستعمال في قول الشاعر[٤]: (الوافر)

غَـــداةَ صَـــبَحْتُهُم شَـــعْواءَ تُـــرْدِي بأُسْـــدٍ مـــا تَمَـــلُّ مِـــن الزَّئِيـــرِ[٥]

كُمَـــاةِ الطَّعْـــنِ مِـــنْ رُؤَسَـــاءِ عِـــزٍّ إلـــيْهِمْ مُنْتَهَـــى العَـــانِي الضَّـــرِيرِ[٦]

ومِـــن ذُهْـــلِ بْـــن شَـــيْبَانٍ وقَـــيْسٍ لُيُـــوثُ الحـــرب فـــي اليـــوم العَســـيرِ

ومِـــن أَبْنَـــاءِ تَـــيْمِ الـــلَّاتِ عِـــزٌّ تَوارَثَـــه الصَّـــغيرُ عـــن الكَبيـــرِ

وإنْ تَعْـــدُدْ بَنـــي بَكـــرٍ تَجِـــدْهُمْ ذوي القامـــاتِ والعَـــدَدِ الكَثيـــرِ

فقد اعتمد الشاعر في افتخاره بقبيلته بكر على حجة التقسيم ، حين ذكر مجموعة من بطونها مثبتا لهم الفضائل والقيم التي يتم التفاخر بها في المجتمع الجاهلي مثل الشجاعة والمروءة والنجدة لينتهي إلى نتيجة أولية مفادها أن بني بكر جميعهم ذوو فضل وعدد كثير، وهو في ذلك لا يختلف عن طبيعة عصره في إكبار القوة وكثرة العدد، وهذه الكثرة العددية ليست كثرة فارغة لا قيمة لها، ولكنها تتكون من ذوي القامات وأصحاب الفضل والسيادة، وقد ساعد التكرار بالبيت الأخير في

---

(١) ديوان الحارث بن عباد، ص١٥٨.

(٢) القدد: القَدُّ: الشقُّ طولاً. تقول: قَدَدْتُ السيرَ وغيره أَقُدُّهُ قَدًّا. ينظر: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م، ج٢، مادة (قدد).

(٣) جَزَرُ السِباع: اللحمُ الذي تأكله. يقال: تركوهم جَزَراً، بالتحريك، إذا قَتَلوهم، ينظر: الصحاح، ج٢، مادة(جزر).

(٤) ديوان الحارث بن عباد، ص١٧٢– ١٧٤.

(٥) شعواء: غارةٌ شَعْواءُ، أي فاشيةٌ متفرّقةٌ. ينظر: الصحاح، ج٦، مادة (شعا).

(٦) كُماة: جمع كمِيّ الكمي: اللابس السلاح، وقيل: هو الشجاع المقدام الجريء، ينظر: لسان العرب،ج١٥، مادة (كما).

تدعيم الطاقة الحجاجية في الأبيات وتثبيت معاني الفخر، فتكراره لفظ العدد (تعدد ، العدد) يوحي بملاءمة الأسلوب للمعنى، فالكثرة في العدد يقابلها التكرار في اللفظ.

ثم يتابع الحارث معتمدا على حجة التقسيم ذاتها، فيذكر مجموعة أخرى من بطون بكر، فيقول[١]: (الوافر)

حنيفـــــةُ آلُ مكرُمـــــةٍ وفَخْـــــرٍ بِهِـــم يُصْـــلَى بِمَنْصَـــبَةِ القُـــدُورِ
وأحصُـــرُ فـــي الحَمِيَّـــةِ مِـــن لُجَـــيْمٍ حُمَـــاة العِّـــزِ فـــي اليـــوم الضَّـــريرِ
وعمـــروٌ فـــي الـــوَغَى أليـــاثُ حَـــربٍ كـــأنَّ رِمـــاحَهُمْ أشْـــطَانُ بِيـــرِ[٢]
ومِـــن عجـــلٍ كَتائِـــبُ بالمَـــذَاكِي تُـــرَى فـــي كـــل يـــومٍ قَمْطَرِيْـــرِ[٣]
ومِـــن أولادِ يَشْـــكُرِ كُـــلُّ سَـــامٍ طويـــل البَـــاعِ كـــالقَمرِ المُنيـــرِ

ليخلص من الافتخار بهذه البطون إلى النتيجة العامة المرصودة للقصيدة بأجمعها، والتي يقتضيها تعميم حكم الأجزاء على الكل، فيقول[٤]:

فَمـــا فـــي النَّـــاس حَـــيٌّ مثـــلُ بكـــرٍ إذا مـــا افْتَخَـــرَ المُفَـــاخِرُ للفَخُـــورِ

وتظهر قبيلة بكر من خلال هذه النتيجة أفضل العرب قاطبة وخيار الناس جميعهم، وقد أفاد تكرار الشاعر لمادة (فخر) ثلاث مرات في الشطر الأخير على تعضيد هذه النتيجة وجعلها أكثر جذبا لانتباهه وتثبيتًا لمعاني الفخر في ذهنه.

٢-٢ – حجة الاشتمال أو (إدماج الجزء في الكل):

وتُؤسَّس هذه الحجة على مبدأ رياضي هو أن "ما ينسحب على الكل ينسحب على الجزء من هذا الكل"[٥]، وذلك باعتبار أن قيمة الجزء تمثل قيمة الكل.

وقد ظهر استعمال الحارث لهذه الحجة في مطلع القصيدة الأشهر من بين قصائده، والتي خصصها لرثاء بجير، حيث يقول[٦]: (الخفيف)

---

(١) ديوان الحارث بن عباد، ص١٧٣، ١٧٤.

(٢) الأشطان: جمع شَطَن وهو الحبل الطويل، ينظر: الصحاح، ج٥، مادة(شطن).

(٣) المذاكي: العتاقُ المَسانُّ من الخَيْلِ. ينظر: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الزَّبيدي :تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق/ مجموعة من المحققين، دار الهداية، (د.ت)، ج٣٨، مادة (زكو).

(٤) ديوان الحارث بن عباد، ص١٧٤.

(٥) ليونال بلنجي: الحجاج مبادئه وطرقه، ص٢٥، نقلا عن: سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٢١٠.

(٦) ديوان الحارث، ص١٩٠. ينظر: الجواليقي: شرح أدب الكاتب، ٢٤١

كُـــلُّ شَـــيءٍ مَصـــيرُهُ لِلـــزَوالِ غَيـــرُ رَبّـــي وَصـــالِحِ الأَعمـــالِ

فالبيت ينطوي على معان حِكَمِيَّة ذات طاقة إقناعية كبيرة يتوجه بها الحارث إلى نفسه ليقنعها ويدعوها إلى التأسي والتصبر، معتمدا في ذلك على الاحتجاج بشمولية الموت، وأنه مصير كل شيء من إنسان وحيوان وطير وجماد ...إلى آخره ، وليس بجير إلا جزءا من هذا الكل؛ لذا فإن من الطبيعي والمنطقي في الوقت ذاته أن يأتي عليه ما يأتي على غيره، فلا حيلة في الموت، ولن يبقى إلا وجه الله وصالح الأعمال.

كما يظهر استعمال الحارث لهذه الحجة في قوله[١]: (الخفيف)

اذكُـــروا قتلْنـــا الأَرَاقِـــمَ طُـــرًّا يـــومَ أضْـــحى كُلَيْبِهَـــا مَقْتُـــولا

وقوله[٢]: (الكامل)

إنَّ الأَرَاقِـــمَ أصْـــبَحَتْ مسْـــؤولةً بقـــرارةٍ لمَـــواطئ الأَقْـــدامِ[٣]

وقوله [٤]: (الخفيف)

كَـــمْ قَتِيْـــلٍ مِـــن الأَرَاقِـــمِ مَطْلُـــو لٍ وميّـــتٍ عَـــنْ وجْهِـــهِ صـــدْيَانِ[٥]

فالأبيات الثلاثة وإن قيلت في مواضع متفرقة لكن ما يجمعها هو سياق فخر الشاعر بالانتصار وإنزال الهزيمة بالمهلهل بن ربيعة وقومه (بني جشم)، وقد اختار الشاعر لفظ (الأراقم) اسما لهم، معتمدا في ذلك على حجة الاشتمال؛ فالأراقم مجموعة من القبائل التي يرجع أصلها إلى تغلب بن وائل، وهذه القبائل هي: جشم وهم رهط مهلهل، وَعَمْرو، وَمَالك، وثعلبة، وَمُعَاوِيَة، والْحَارث، وسموا

(١) ديوان الحارث بن عباد، ص٢١٦.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٢٥.

(٣) لفظ مسؤولة قلق في موضوعه، لعله محرف أو مصحف. ينظر ديوان الحارث، ص٢٢٥.

(٤) ديوان الحارث بن عباد، ص٢٣٣.

(٥) المطلول: الذي ذهب دمه هدرا، طل دمه فهو مطلول، ودماؤهم مَطْلولَةٌ ليس لها طالِبٌ. ينظر الصحاح، ج٥، ج٥، مادة (طلل).

بها لأن امرأة شبهت عيون آبائهم بعيون الأراقم [١]، ومن ثم فإن التعبير عن هزيمة الأراقم (الكل) يشي ضمنيا بهزيمة بني جشم رهط المهلهل (الجزء)؛ لأن ما يصير على الكل يصير على كل أجزائه.

ثانيا . الحجج المؤسَّسة على بنية الواقع:

وهذا النوع من الحجج لا يعتمد على المنطق وإنما يقوم على" تفسير الوقائع والأحداث من خلال عرض الآراء المتعلقة بهذا الواقع، ويمكن أن تكون هذه الآراء وقائع أو حقائق أو افتراضات"[٢]، فيحاول المحاجج بالاعتماد على هذه الحجج أن يقدم قراءة للواقع من وجهة نظره الخاصة، من غير أن يصفه وصفًا موضوعيًا محايدًا.

ومن أبرز حجج هذا النوع في شعر الحارث، ما يأتي:

١ . الحجة البرغماتية:

وهي من الحجج التي يستخدمها المحاجج في تقديم قراءته للواقع المعيش، ويعرفها ليونال بلنجي بأنه " يمكن الحجاج البرغماتي من تقويم قرار أو حدث أو رأي باعتبار نتائجه الإيجابية والسلبية"[٣]، وقد اعتمد الحارث على هذه الحجة في تقويم قرار تجنب الحرب واعتزالها، من خلال بيان نتائجه السلبية، فيقول[٤]: (الخفيف)

أصـــبَحَت حَربُنـــا وَحـــربُ أبينـــا بِاســـتِعارٍ تَشُـــبُّ بِـــالأهوالِ
بَعـــدَ سِـــلمٍ وَإِلفَـــةٍ وَاجتِمـــاعٍ وَتَعـــاطٍ بِـــالعُرفِ وَالأَمـــوالِ
فَلَقَـــد تَلحَـــقُ البَـــريءَ دَمُ الحَـــر ب وَتُـــردي بِالأَصـــلَحِ المُختـــالِ
وَتعـــاطى أهـــلَ النُهـــى فَتَـــراهُم عِنـــدَ جَـــدِّ الأُمـــورِ كَـــالأَعزالِ
ثُـــمّ تَســـمو إِلـــى الخَريـــدَةِ حَتّـــى لا تُـــواري مَواضِـــعَ الخَلخـــالِ[٥]

فهو ينبذ ويرفض مبدأ السلم الذي ارتضاه لنفسه وقومه منذ بداية الحرب، معتمدا في تبرير ما يذهب إليه على الحجة البرغماتية، التي قيَّم من خلالها مبدأ تجنب الحرب والعداوة، من خلال ما يسفر عنه من نتائج سلبية في المجتمع الجاهلي، الذي يعظم القوة ويهاب الظالم، ويحسب أفراده

---

(١) ينظر: أبو عبيدة معمر بن المثنى: شرح نقائض جرير والفرزدق، تحقيق: محمد إبراهيم حور، وليد محمود خالص، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات، ط٢، ١٩٩٨م، ج٢، ص٥٤٤.

(٢) عبدالله صولة: في نظرية الحجاج: ص٤٩.

(٣) ليونال بلنجي: الحجاج مبادئه وطرق، ص٢٧، نقلا عن: سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٢١٨.

(٤) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٧،١٩٨.

(٥) الخريدة من النِّسَاءِ: البِكْرُ الَّتِي لم تُمْسَسْ قَطُّ. ينظر: تاج العروس، ج٥، مادة (خرد).

من كان مسالما ومتجنبا لعداوة غيره جبانا أو ضعيفا، ومن ثم استهانوا به واعتدوا على حرمته وجاروا على حقه، فالحرب في هذا المجتمع لا تفرق بين القريب والغريب، ولا الجاني والبريء، ولا الرجل والمرأة.

٢ – الحجة الغائية:

تقوم هذه الحجة على تبرير فعل ما – باعتباره وسيلة – من خلال تحديد الغاية التي يكون من أجلها، وفي ذلك يقول أوليفي روبول: "تضطلع الغائية التي يستبعدها العلم بدور أساسي في الأحداث الإنسانية منها نستطيع أن نشتق حججا كثيرة تؤسس كلها على الفكرة القائلة بأن قيمة الشيء تتصل بالغاية التي يكون لها وسيلة: حججا لم تعد تعبيرا عن قولنا بسبب كذا وإنما من أجل كذا"(١).

وهذه الحجة شائعة في أشعار القدامى في الشعر الدائر حول موضوع الثأر بوصفه قيمة جاهلية "فهم يجعلون من الثأر غاية أفظع الوسائل ونعني تقتيل القبيلة التي ينتمي إليها القاتل دون شفقة أو رحمة"(٢)

وانطلاقا من هذه الحجة جاء قول الحارث(٣): (الوافر)

شَـــهَرْتُ السَّـــيفَ إذ قَتَلُـــوا بُجَيْـــرًا فأَهْلَكْـــتُ الصَّـــغيرَ مـــع الكَبيـــرِ

فَلَـــو قَتَّلـــتُ تَغْلِـــبَ فـــي بُجَيْـــرٍ لكَـــانُوا فيـــه كالشَّـــيءِ الحَقَيْـــرِ

علـــى أنْ لـــيس عِـــدْلًا مِـــن بُجَيْـــرٍ إذا اخْـــتَلَطَ القَبِيْـــلُ مـــع الـــدَّبيرِ

فقد اتخذ الشاعر من قتل وإبادة قبيلة تغلب صغيرها وكبيرها مقبلها ومدبرها وسيلة لتحقيق غايته المتمثلة في أخذ ثأر ابنه بجير، وذلك بالرغم من علمه أن الذى قتل بجيرا هو المهلهل بن ربيعة وحده، ولكن الحارث في ذلك لا يخرج عن طبيعة العصر الجاهلي والعادات السائدة فيه، والقاضية بأن الذي يجب أن يقاد للقتل أو يُأخذ بالمقتول لا يكون القاتل وحده أو حتى كل أفراد أسرته، وإنما قبيلته جميعها، بل إن الحارث يذهب إلى أبعد من ذلك حين يرى أن قتل تغلب جميعها لا يوفي ثأر بجير، فهم فيه كالشيء اليسير.

ومما يلاحظ في هذه الأبيات تكرار الشاعر لاسم ابنه بجير في ثلاثة أبيات متوالية، وهذا التكرار يدعم الحجة ويبرر القتل ويمنحه صفة المشروعية؛ لأنه من أجل الثأر، فهو قتل عدل وقصاص – بحسب زعمهم– لا قتل ظلم واعتداء، وكذلك تكرار لفظ القتل في قوله (قتلوا، قتلت) فأحدهما

(١) أوليفيي روبول: مدخل إلى الخطابة، ص١٧٩ ، نقلا عن سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٢٢١.

(٢) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٢٢٣.

(٣) ديوان الحارث بن عباد، ص١٧٨.

متصل بالضمير العائد على التغلبيين والثاني متصل بالضمير العائد على الحارث، فدلالة كل منهما متضادة مع الأخرى، وهذا التضاد يدعم المعاني الفخرية الموجودة في الأبيات، ويبرز قيمة الذات في مقابل المجموع، فالحارث قد جعل نفسه في مقابل التغلبيين جميعهم.

ومما يتجلى فيه الانتقاء الجيد للألفاظ الطباق في قوله: (الصغير/الكبير، القبيل/ الدبير) والذي وظفه الشاعر بالإضافة إلى وظيفته الجمالية لغاية حجاجية هي تأكيد معنى الإبادة الجماعية التي لحقت بقبيلة تغلب.

وقد اعتمد الشاعر الحجة نفسها في موضع آخر حيث يقول[١]: (الكامل)

أفَبَعْـــدَ مَقْـــتَلِكُمْ بُجَيْـــرًا عَنْـــوَةً تَرْجُـــــون وُدًّا آخِـــــرَ الأَيَّـــــامِ

كَـــلَّا ورَبِّ الرَّاقِصَـــاتِ إلـــى مِنَـــى كَـــــلَّا ورَبِّ الحِـــــلِّ والإحْـــــرَامِ

حتَّـــى تُقِيْـــدُونا النُّفُـــوسَ بِقَتْلِـــهِ ونَـــرومَ فـــي الشَّـــحْنَاءِ كُـــلَّ مَـــرَامِ

وتَجُـــولَ مضـــناةُ الخُـــدورِ حَواسِـــرًا يَبْكِـــين كُـــلَّ مُغـــاورٍ مرغـــامِ

فالذي يجب أن يقاد للقتل قصاصا وثأرا لبجير ليس قاتله المهلهل بن ربيعة ، وإنما نفوس الكثيرين من أبطال وشجعان قبيلة تغلب.

وتظهر هذه الحجة أيضا في قول الحارث[٢]:

وَلَعَمـــــــري لَأقـــــــتُلَنَّ بِبُجَيـــــــرٍ عَـــدَدَ الـــذَّرِّ وَالحَصـــى وَالرِّمـــالِ

وكذلك في قوله[٣]:

لَأبيـــــــدَنَّ تَغلِبـــــــاً بِبُجَيـــــــرٍ أو يَـــذوقَ الحُتـــوفَ كـــلُّ الرِجـــالِ[٤]

٣ . حجة التعايش : حجة السلطة – حجة الشخص وأعماله:

تبنى هذه الحجة على "علاقة تعايش بين الأشياء، وهي علاقة حصرها البعض في علاقة الذات بصفاتها أو الشخص بأفعاله"[٥]، ويتفرع عنها حجتان:

(١) ديوان الحارث بن عباد، ص٢٢٨،٢٢٩.

(٢) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٧.

(٣) المرجع نفسه، ص١٩٩.

(٤) صرف (تغلب) للضرورة .

(٥) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٢٢٨.

٣-١: حجة السلطة:

وهي حجة تغذوها هيبة المتكلم ونفوذه وسلطته، فعلى سبيل المثال وعد الشرف أو القسَم الذي يأتي على لسان متكلم ما باعتباره تأكيدا وشاهد إثبات على ما يقول، يكون تصديقه من عدمه موقوفا على قيمة هذا المتكلم وما هو معروف عنه معهود عليه من صدق أو كذب عند الناس(١).

وتتعدد مصادر هذه السلطة فقد تكون " الرأي العام، أو العلماء أو الفلاسفة أو الكهنوت أو الأنبياء . . . . وقد تكون هذه السلطة غير شخصية مثل الفيزياء أو العقيدة أو الدين"(٢).

ويظهر استعمال هذه الحجة في قول الحارث(٣): (البسيط)

لا تَحْسَبُوا أَنَنَا يا قَومُ نُقْلِتُكُمْ أو تهربُون إذا ما أعْوَزَ الهَرَبُ

كَلَّا ورَبِّ القِلاصِ الرَّاقِصَات ضُحًى تَهْوِي بها فِتْيَةٌ غُرٌّ إذا انْتُدِبُوا(٤)

فالشاعر يتوعد التغلبيين بألا يفلتهم أو يهربوا من ساحة القتال، وقد عمد على تقوية الطاقة الحجاجية وتوكيدها من خلال سلطة الرمز الديني المتمثلة في القسم، إذ القسم في ذاته (سلطة دينية) تساعد المتكلم في تحقيق هدفه الإقناعي؛ لأنه ينهض على الأبعاد الآتية(٥):

أولا: أنه يستند على ما بين طرفي القسم من وحدة عقدية، وبدون هذه الوحدة تتقوض طاقته وحجيته، وهذه الوحدة أو هذا التوافق بين طرفي الخطاب مبدأ حجاجي رئيس.

ثانيًا: أن القسم حصن أخير تلجأ إليه الذات المحاجة، فبمجرد النطق به أو الاحتكام إليه فهذا يعني أن تفاصيل كثيرة أسدل عليها ستار له من الهيبة ما للقسم من قداسة.

ثالثاً: يمتاز القسم ببعده التداولي الذي ينجز هدفا تعلو به قيم العدل والحق، وهذا يعني أنها حجة قاطعة في دلالتها على صدق الموقف.

وقد ساعدت البنية الأسلوبية للقسم على التكثيف الحجاجي، فقد أضاف الشاعر مادة القسم الرئيسة (ربّ) إلى (القلاص الراقصات) وهي الإبل الشابة السمينة التي تسرع في مشيتها، وهذا الاختيار ينبئ عن وعي الشاعر باختياراته الأسلوبية؛ وذلك باعتبار أن الإبل مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحرب

---

(١) ينظر: عبدالله صولة: في نظرية الحجاج، ص٥٢.

(٢) المرجع نفسه، ص٥٢، ٥٣.

(٣) ديوان الحارث بن عباد، ص١٥٠.

(٤) القلوص من الإبل: الفَتيَّة بمنزلة الجارية من النساء، ينظر: الصحاح، ج٣، مادة (قلص).

(٥) ينظر: محمد عبدالباسط عيد، في حجاج النص الشعري، ص٦٢، ٦٣.

والشجاعة والقوة، وكذلك اختيار التوقيت التي تسير فيه تلك الإبل (ضحى) وهو الوقت الذي تكثر فيه الإغارة على الأعداء عند الجاهليين، وكذلك فإن من صفات هذه الإبل أنها (تهوي بها فتية غر إذا انتدبوا) أي فتيان شجعان ينقضّون على الأعداء كما تنقض جوارح الطير والحيوان على فرائسها، وبهذا يكون الحارث قد أضاف إلى سلطة القسم ما يعضدها، واستطاع من خلال هذه الاختيارات الأسلوبية أن يعطي البيت كله بعدا حماسيا.

ولما كانت "حجة السلطة عادة لا تكفي صاحبها حاجته إلى غيرها من الحجج، بل تأتي في أغلب الخطابات الحجاجية مكملة للحجج المتنوعة تعضدها لكن لا تعوضها، وترفدها دون أن تحل محلها"[(١)]، فقد جاء استعمال الحارث لحجة (الغائية) – التي سبقت الإشارة إليها – مقرونة بحجة (السلطة) المتمثلة في القسم في قوله[(٢)]: (الكامل)

أفَبَعْـــدَ مَقْـــتَلِكُمْ بُجَيْـــرًا عَنْـــوَةً تَرْجُـــــون وُدًّا آخِـــــرَ الأَيَّـــــامِ

كَـــلَّا ورَبِّ الرَّاقِصَـــاتِ إلـــى مِنَـــى كَـــــلَّا ورَبِّ الحِـــــلِّ والإحْـــــرَامِ

حتَّـــى تُقِيْـــدُونا النُّفُـــوسَ بِقَتْلِـــهِ ونَـــرومَ فـــي الشَّـــحْنَاءِ كُـــلَّ مَـــرَامِ

وتَجُـــولَ مضـــناةُ الخُـــدورِ حَواسِـــرًا يَبْكِـــين كُـــلَّ مُغـــاورٍ مرغـــامِ

كما تبدو الاختيارات الأسلوبية في الأبيات داعمة لسلطة القسم، فقد امتدت صيغة القسم أو (المقسم به) من خلال التكرار لتشمل بيتا كاملا على نحو تتضاعف به سلطة القسم وتعظم في نفوس المتلقين هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أن المقسم عليه جاء في البيتين التاليين للمقسم به، مما يعني أن الشاعر قد ارتكب عيب (التضمين)، وهو – أي التضمين – بالرغم من مجافاته للذائقة العربية إلا أنه يجعل أبيات الحجة وحدة واحدة[(٣)]، وهذا الترابط من شأنه أن يزيد التأثير في المتلقي، ومن ثم الاقتناع والتسليم بما يعرض عليه.

وتتصدر (حتى) التي تفيد انتهاء الغاية جواب الشرط الذي يحتوي على الحجة (الغائية)، مما يؤدي إلى الترابط المحكم بين حجتي (سلطة القسم) و(الغائية)، وهذا الترابط المحكم البناء والدلالة بين هاتين الحجتين يغلق كافة المنافذ وينفي نفيًا قاطعًا وجود أي مجال للصلح أو الود الذي أشار إليه الشاعر في البيت الأول، إلا بعد أن يبر قسمه وينفذ وعيده، بقتل نفوس الأبطال والشجعان منهم ثأرا لبجير.

---

(١) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٢٣٦.

(٢) ديوان الحارث بن عباد، ص٢٢٨، ٢٢٩.

(٣) ينظر: محمد عبدالباسط عيد، في حجاج النص الشعري، ص٦٦.

وبهذا يكون الشاعر قد أضاف إلى حجاجه حجاجا آخر بما يمكنه من الإقناع وحمل متلقيه على الإذعان.

٣-٢: حجة الشخص وأعماله:

ومن أبرز مقوّمات هذه الحجة أنها "تقوم على مواجهة إيجابية بين الفعل وبين الشخص، كأن تقبل أطروحة بإرجاعها إلى صاحبها الجدير بالثقة؛ أو يقدم كتاب بواسطة كاتب مشهور"(١)، فالمتكلم عندما يكون جديرا بالثقة فإنه يوظف ذاكرة المتلقي الإيجابية لاستحضار ما يعرفه عنه من خصال ليكون ذلك بمثابة الشاهد على دعواه؛ وأنه إن اتخذ موقفا محددا أو قرارا معينا فإنه قادر على تحويله إلى فعل، وبهذا يحمل المتكلم متلقيه حملًا – بوعي أو بدون وعي – على الاقتناع بما يقول والإذعان لما يدعيه ؛ يقول الحارث(٢): (البسيط)

والخيلُ تَعْرِفُ أنّي مِن فَوارِسِهَا يومَ الطِّعانِ وقَلبُ النِّكْسِ يَرْتَعِدُ(٣)

وقد حَلَفْتُ يَمينًا لا أُصَالِحُكُمْ ما دَامَ مِنَّا ومِنْكُمْ في المَلَا أَحَدُ

حَتَّى نُبِيدَكُمْ بالسَّيفِ ثانيةً ونُشْبِعُ الطَّيْرَ والذُّؤبَانَ إذ تَفِدُ

فظاهر الأبيات أنها تفاخر بالشجاعة والقوة ولكن عمقها تهديد الشاعر وإرهابه لأعدائه قتلة بجير، فهم المستهدفون بهذا النص، ومن خلال معرفتهم بصفات الحارث وخصاله وفعاله، يدركون تمام الإدراك أنه قادر على إنفاذ وعيده، ومن ثم لا يجدون سبيلا أمامهم سوى الاقتناع بفكرة الإرهاب التي يريد الشاعر أن يقنعهم بها.

وقد أسهم الانتقاء الأسلوبي للألفاظ في تعضيد الحجاج، فقد كان الشاعر موفقا في اختيار لفظ (الخيل) في الاحتجاج لفروسيته المتميزة، وذلك باعتبارها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحرب والشجاعة في الأساس، إذ تغدو الخيل رمزا للرجولة الفذة والمجد التليد، فإذا ما أراد أحدهم الإقناع بضروب الحرب ورام الحمل على نبذ السلم والمهاودة ذكَّر بهذا الرمز"(٤)، وكذلك اختياره لصيغة القسم (حلفت) وهي صيغة تحتوي في ذاتها على طاقة حجاجية كبيرة؛ من حيث إفادتها – مجازا- معنى المداومة والملازمة، ففلان حليف الندى أي ملازمه(٥)، ومعنى الملازمة هذا هو ما قصده الشاعر،

---

(١) محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانيّة، دار الثقافة، الدار البيضاء ، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص٣٥.

(٢) ديوان الحارث بن عباد، ص١٦٠.

(٣) النكس: والنِّكْسُ: الرَّجُلُ الضَّعِيفُ والجَمْع: أَنْكاسٌ. ينظر: تاج العروس، ج١٦، مادة (نكس).

(٤) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٢٤١.

(٥) المرجع نفسه، ص٢٣٦.

بل نص عليه صراحة في الشطر الثاني من البيت بقوله: (ما دام منا ومنكم في الملا أحد)، مما يدل على نفي الصلح واستمرارية القتال حتى يفنى كل الموجودين فى القبيلتين، ولا يخفى ما أفاده التكرار الاشتقاقي في قوله: (منا ومنكم) في تأكيد هذا المعنى وتعضيد الحجة.

ثالثا: الحجج التي تؤسس بنية الواقع :

والحجج من هذا النوع تؤسس "الواقع وتبنيه، أو على الأقل تكمله، وتظهر ما خفي من علاقات بين أشيائه، أو تجلي ما لم يتوقع من هذه العلاقات، وما لم ينتظر من صلات بين عناصره ومكوناته"(١)، فيقوم المحاجج بإيجاد روابط تظهر علاقات لم يرها المتلقي من ذي قبل، ولهذا النوع من الحجج تقنيتان رئيستان:

- تأسيس الواقع بوساطة الحالات الخاصة.
- الاستدلال بوساطة التمثيل

١- تأسيس الواقع بوساطة الحالات الخاصة :

وهي تقنية حجاجية من التقنيات التي تحاول تأسيس الواقع عن طريق الحالات الخاصة أو الفردية، ويكون مدار الحجاج فيها على "المثال المفرد المعزول الذي يُعتمد لتعميم حكم ما أو فكرة معينة فيتأسس الواقع على ظاهرة مفردة يتم توسيعها بحيث تصبح حالة عامة لا مجرد حالة خاصة ثم الانطلاق منها وبناء الواقع عليها"(٢).

ومن ذلك قول الشاعر(٣): (الكامل)

ونَهَيْتُ جَسّاسًا لِقَاءَ كُلَيْبِهِمْ خَوفَ الّذِي قَد كان مِن حَدَثَانِ

ولَقَدْ أَبَى والبِغْيُ مُهْلِكَ أَهْلِهِ إلا مَنِيَّتَه بِحَدِّ سِنانِ

يكشف الحارث في الأبيات السابقة عن الدور الذي قام به في الحيال دون وقوع هذه الحرب، فيذكر في أسلوب لا يخلو من أسف وحزن أنه نهى جساسا عن قتل كليب لئلا يقع ما كان يخافه ويحذره الشاعر وهو نشوب الحرب بين أبناء العمومة، ولكن جساسا أبي إلا قتل كليب، وقد انتقل الشاعر سريعا من هذه الحالة الخاصة المتعلقة بهذا الموقف تحديدا إلى تأسيس حكم جامع وقاعدة عامة يقدمها للمتلقي، مضمونها: أن (البغي مهلك أهله)، وهذه الحكمة التي استخلصها الشاعر من هذا الموقف الخاص تصلح للتطبيق على كافة الحالات المماثلة فيما بعد.

---

(١) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٢٤٢.

(٢) المرجع نفسه ، ص٢٤٣.

(٣) ديوان الحارث بن عباد، ص٢٣٥.

ومن ذلك أيضًا قول الحارث[١]: (الكامل)

ولَقَـــد نَكَأْتُـــكَ نَكْـــأَةً مَشْـــهُورةً تَرَكَتْـــكَ مُنْخَسِـــفًا لَـــدَى الأقْـــوامِ[٢]

ولَقَـــد أَسَـــرْتُكَ ثُـــمّ عُـــدْتُ بِنِعْمَـــةٍ لَـــو كُنـــت تَشْـــكُرُ لِـــي بِهَـــا إنْعَـــامِي

ضَـــمِنَتْ لَنَـــا أرْمَاحُنَـــا وسُـــيُوفُنَا بِهَـــلاكِ تَغْلِـــبَ آخِـــرَ الأيَّـــامِ

فَلَأَتْـــرُكَنَّ لِتَغْلِـــبَ بْنَـــةِ وائـــلٍ بَعْـــد الكَـــرَى شُـــغْلًا بِغَيْـــرِ مَنَـــامِ

أَقْصَـــدْتُكُمْ لمَّـــا قَصَـــدْتُ إلـــيْكُمُ فَـــافْخَرْ بطَعْنَـــة رُمْحِـــه القَصَّـــامِ

وإذا الكِـــرَامُ تَـــذَاكَرَتْ أيَّامَهَـــا كُنْـــتُمْ علـــى الأيَّـــامِ غَيـــرَ كِـــرَامِ

ففي سياق الفخر بشجاعة الذات وقوتها يذكر الشاعر ما فعله بالمهلهل بن ربيعة – قاتل ابنه– في أحد أيام الحرب، حين أسره ولم يعرفه، فقال له: دلني على عدي بن ربيعة ولك الأمان، فقال: أنا آمن إن دللتك عليه، قال: نعم. قال: فأنا عدي بن ربيعة فخلاه [٣]، وما يهمنا في هذه الأبيات انتقال الشاعر من حالته الخاصة والحديث عن ذاته إلى تأسيس حكم عام يشاركه فيه كافة أفراد قبيلته، ويظهر ذلك من خلال التحول والالتفات من ضمير المفرد في قوله: (نكأتك ، أسرتك، عدت، لي، إنعامي) إلى ضمير الجمع في قوله: (لنا، أرماحنا، سيوفنا)، فيقول[٤]:

ضَـــمِنَتْ لَنَـــا أرْمَاحُنَـــا وسُـــيُوفُنَا بِهَـــلاكِ تَغْلِـــبَ آخِـــرَ الأيَّـــامِ

وقد جاء تقديم الجار والمجرور (لنا) وتكرار الضمير (نا) ثلاث مرات متوالية لتأكيد تلك الوضعية العامة، فلا يُضمن بقاء ولا يُحقق مجد في مجتمع الجاهلية إلا بالرماح والسيوف، فبهما تصان الحرمات وتبلّغ المقاصد والغايات في ذلك المجتمع.

وكذلك الانتقال من الحكم الخاص بالمهلهل إلى حكم عام يشترك فيها أفراد قبيلة تغلب جميعهم، عن طريق الالتفات من ضمير المخاطب المفرد إلى ضمير جماعة المخاطبين (كنتم) في قوله[٥]: (الكامل)

وإذا الكِـــرَامُ تَـــذَاكَرَتْ أيَّامَهَـــا كُنْـــتُمْ علـــى الأيَّـــامِ غَيـــرَ كِـــرَامِ

---

(١) ديوان الحارث بن عباد، ص٢٢٦، ٢٢٧.

(٢) نكأ: نكيت الأعداء نكاية إذا كثرت فيهم الجراح والقتل. ينظر: لسان العرب، ج١٥، (نكا).

(٣) ينظر: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ، ص٨٤.

(٤) ديوان الحارث بن عباد، ص٢٢٧.

(٥) المرجع نفسه، والصفحة.

وقد أدت المفارقة الناشئة عن التكرار الاشتقاقي دورها في إبراز هذه الوضعية العامة فكلمة (الكرام) الأولى مثبتة، بينما الثانية مسبوقة بالنفي (غير كرام) أي كنتم يابني تغلب جميعكم غير كرام.

وتتأسس على حجة تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة عدة حجج فرعية من أبرزها في شعر الحارث بن عباد ما يأتي:

١- ١- الحجاج بالنموذج أو النموذج المضاد:

وهي تقنية حجاجية من التقنيات التي تحاول تأسيس الواقع عن طريق الحالات الخاصة، ويكون مدار الحجاج فيها على "نموذج يصلح على صعيد السلوك لا لتأسيس قاعدة عامة أو دعمها فحسب، وإنّما يصلح كذلك للحض على عمل ما اقتداءً به ومحاكاة له ونسجًا على منواله وإن بطريقة غير موفقة تمام التوفيق"(١)، أما في حجة النموذج المضاد أو " عكس النموذج هذه يكون الحض لا على الاقتداء بطبيعة الحال، وإنما على الانفصال عن الشخص الذي يمثل عكس النموذج"(٢).

وليس يشترط أن يكون النموذج أو النموذج المضاد حقيقيين أو موجودين بالفعل وإنما كثيرا ما يصنعهما الشاعر في شعره ويقدهما من اللغة قدًّا فإذا بها تغري بالاقتداء بالنموذج وتدعو إلى الانصراف عن ضده(٣).

ولما كان الشعراء هم الناطقون بلسان أقوامهم يخلدون مآثرهم ويذيعون فضائلهم فيما يعملون جاهدين على إقصاء الصفات المعيبة والنقائص وإبعادها عنهم؛ لذا كانوا في أشد الحاجة إلى حجة النموذج والنموذج المضاد، بما يجعلهما ركنين أساسيين من أركان الشعر العربي(٤).

وقد وجدت لهذه الحجة حضورا بارزا في شعر الحارث، حيث الاحتجاج لمكانته وقومه بين سائر قبائل العرب، فيقول(٥):

فَلَقَـــد قُلـــتُ قَولـــةً غَيـــرَ فُحـــشٍ لَـــيسَ قَـــولَ السُـــفَّاهِ والأنـــذالِ

فالشاعر يرسم لنفسه نموذجا يحتذى به في الحكمة ورجاحة الرأي، ولكنه لا يعبر عن ذلك صراحة وإنما من خلال نفي الصفات المضادة لما يريد إثباته، وهما صفتا (السفاهة والنذالة)، والحارث لم

(١) عبدالله صولة: في نظرية الحجاج، ص٥٥.

(٢) المرجع نفسه، ص٥٦.

(٣) ينظر: سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٢٤٥.

(٤) ينظر: المرجع نفسه، ص٢٤٧.

(٥) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٤.

ينف هاتين الصفتين عن نفسه، إلا لأنه قد وجد في الواقع نماذج متصفة بهما؛ ومن ثم أراد أن يثبت أنه لا ينتمي إلى هؤلاء.

وبهذا يتضح أن النفي في البيت لا يريد به الحارث أن يثبت لنفسه مضاد الصفات التي ذكرها فحسب، ولكنه أراد أيضا التعريض برجال قبيلة تغلب بعامتهم، والمهلهل بن ربيعة على وجه الخصوص، فهم من يمثلون هذا النموذج المضاد؛ وذلك لأن "النفي إذا دخل بالخصوص على صفة تقيد الكلام أدى إلى ظهور المفهوم سواء قدرنا للكلام مقاما أولم نقدر له على أن يكون ذلك المفهوم واحدا في كل الحالات، ويمكن للنماذج التالية بيان ذلك: (ليس على المريض حرج) = غيره – أي الصحيح – حرجه غير مرفوع، لا ينجح المتكاسلون = ينجح المجتهدون، لا يسقط المجتهدون = غيرهم – الكسالى – يسقطون، وهو ما يكثر في خطاب التعريض عادة"(١).

ولا يفوتني أن أشير إلى أن البلاغيين العرب القدماء قد فطنوا إلى ذلك، حيث يقول الإمام الزركشي وهو بصدد تفسيره لقول الله عز وجل (مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)(٢)، يقول: "فكان نفي الشفيع المطاع تنبيها على حصوله لأضدادهم كقولك لمن يناظر شخصاً ذا صديق نافع: لقد حدثت صديقًا نافعًا، وإنما تريد التنويه بما حصل لغيره لأنّ له صديقاً ولم ينفع"(٣).

أما القول غير الفاحش الذي قاله الشاعر فمن المحتمل أن يكون الكلام الوارد في البيت الذي بعده، حيث يقول الحارث(٤):

لا بُجَيـــرٌ أغنـــى قتـــيلاً وَلا رَهـــ طُ كُلَيـــبٍ تَزاجَـــروا عـــن ضَـــلالِ

وإما أن يكون القول الذي قاله في بداية المعركة وهو: (هذه الحرب لا ناقة لي فيها ولا جمل)، والبحث يميل إلى ترجيح الاحتمال الثاني؛ لأن هذا ما يدل عليه الإخبار بالفعل الماضي الذي يشير إلى حدث مضى وانقضى.

ويظهر كذلك توظيف الحارث لحجة النموذج، حيث يقول(٥): (الخفيف)

فَسَـــلُوا ضَـــنَّةَ بْـــنَ عَبْـــدٍ وأَوْدًا تُخْبَـــرُوا أنَّنَـــا قَـــد شَـــفَيْنَا الغَلِـــيْلَا

مِـــنْهُمُ حِـــين يَصْـــرُخُون بِكَعْـــبٍ وبِـــذُهْلٍ وكَـــان قِـــدْمًا نَكُـــولا(٦)

---

(١) عزالدين الناجح: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين، صفاقس، ط١، ٢٠١١م، ص٥٣، ٥٤.

(٢) سورة غافر، الآية ١٨.

(٣) بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق/ محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ج٣، ص٣٩٦، ٣٩٧.

(٤) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٤.

(٥) ديوان الحارث بن عباد، ص٢٢٠،٢١٩.

(٦) نكولا: نَكَلَ عَن الأَمْرِ يَنْكُلُ عَنْهُ نُكُولاً: إذا جَبُنَ عَنْه. ينظر: الصحاح، ج٣١، (نكل).

وطَرَدْنَـــا مِـــن العِـــراقِ إيَـــادًا وتَرَكْنَـــا نَصِـــيْبَهُمْ مَرسُـــولا
ثُـــمَّ فَـــرَّقْنَ بَـــين عَـــكٍ ولَخْـــمٍ وحَيّـــا الأشْـــعَرِيْنَ غَيْضًـــا طَـــويلا
ثُـــمّ أُبْنَـــا والخَيـــلُ تُجْنَـــبُ شَـــعْثًا كالَّســـعَالى عَتَائقًـــا وفُحُـــولا
سَلسَـــاتِ القِيَـــادِ كُمْتًـــا ودُهْمًـــا ووِرَادًا تَـــرى بهـــا تَحْجِـــيلا
كُـــلُّ قـــومٍ نُبـــيحُهُمْ وحِمَانَـــا قـــد مَنَعْنَـــاه أن يُبَـــاح السَّـــبيلا

يظهر الحارث قبيلته بني بكر من خلال هذه الأبيات في صورة النموذج أو القدوة التي تستوجب التقليد والاحتذاء في المنعة والقوة وشدة البأس – من منظور المجتمع الجاهلي – فهم من يقتلون ويفرقون ويطردون، فقد خولت لهم قوتهم وشجاعتهم أن يستبيحوا ديار كل القبائل ولا أحد في استطاعته أن يبيح ديارهم.

وقد ساعد استعمال فعل الأمر في قوله: (فسلوا) على تقوية الحجاج وتأكيد معاني الفخر وتثبيتها، وذلك حين أحال الشاعر على من يتوجهون إليه بالسؤال، وهم هذه القبائل التي نص عليها، والتي جرَّبت قتاله وخبروا طعنه وذاقوا بأسه وعلموا ما قد يكون خفي عليهم من أمره، وعندما يخبرونهم يدركون – بما لا يدع مجالا للشك – حقيقة هذا الشاعر وقومه الفرسان الشجعان.

وعلى خلاف ما سبق يرسم الحارث للمهلهل بن ربيعة نموذجا مضادا في الجبن، حين يفر بعد هزيمته في المعركة، مصدرا صوتا دون النباح، فيقول[١]: (الوافر)

فَحَـــامَ مُهَلهِـــلٌ لمَّـــا التَقَيْنَـــا وعَـــرَّدَ حـــين مَـــلَّ مِـــن الهَريـــرِ
فلـــو نُشِـــرَ المَقَـــابرُ عَـــن كُلَيْـــبٍ لَخُبِّـــرَ فـــي الحِفـــاظِ بِشَـــرِ زِيـــرِ

ويتكئ الشاعر على الحجة ذاتها فيصور أعداءه التغلبيين في هذه الصورة المخزية، فيقول[٢]: (البسيط)

حتّـــى إذا الشَّـــمسُ دارَتْ أمْعَنُـــوا هَرَبًـــا عنَّـــا وخَلُّـــوا عَـــن الأمـــوالِ وانْجَـــرَدوا
لا يَلْبَثُـــــون عـــــن الأوْلادِ تَنْشُـــــدُهُمْ ولا النِّســـاءِ ولا يَـــأْلُون مـــا بَعُـــدُوا

فهو يصور حالة الذعر التي أصابت أعداءه التغلبيين من هول الحرب وشدتها، مما جعلهم يولون الأدبار ويفرون من ساحة المعركة لا يلوون على شيء، على أن الشاعر لا يكتفي بالهزيمة والهروب برهانا على نموذجه المضاد، ولكنه يعضده باختيار هذا الوجه المخزي من الهزيمة والمثير

(١) ديوان الحارث بن عباد، ١٧١.
(٢) المرجع نفسه، ص١٥٦.

لمشاعر العار والنفور وهو التخلي عن الأولاد الصغار الذين ينادونهم وكذلك النساء، حتى أنهم لم يبطئوا السير ريثما يتدبرون أمر هؤلاء الأطفال والنساء.

١-٢- الحجاج بالمقارنة:

وهي إحدى تقنيات الحجاج التي تؤسس الواقع من خلال الحالات الخاصة، وتكون عندما يجتمع الاحتجاج بالنموذج مع الاحتجاج بالنموذج المضاد في خطاب واحد.

وتكمن حجاجية المقارنة "من جهة أنها تمكّن من تبرير أحد الطرفين انطلاقا من الآخر أو من الآخرين"(١)، ومن شروطها أن ينتمي الطرفان أو الأطراف المقارنة إلى نظام واحد بحيث يسهل بيان الفروق ورصد الاختلافات(٢).

ويظهر الاحتجاج بالمقارنة في قول الحارث (٣): (البسيط)

وقد جَزِعْتُمْ ولم تَجْزَعْ غَداتَئِذٍ مِنَّا النُّفوسُ ولم تَخْضَعْ لِمَا نَجِدُ

فاسْأَلْ بِجَيْشك لمَّا فُلَّ جَمْعُهُمُ واسْأَلْ بهم عند وقْعِ الحربِ إذ هَمَدُوا

وقد قَتَلْنَاكُمْ في كُلِّ مُعْتَرَكٍ حتّى أَوَيْتُم ولا يَأْوى لكُم أَحَدُ

فالناظر في هذه الأبيات التي تنهض على معاني الفخر يلحظ – منذ الوهلة الأولى– أنها قد بنيت على المقارنة، حيث يحتج الشاعر لشجاعة قومه وشدة بأسهم في الحرب من خلال مقارنة يجريها بينهم وبين أعدائهم، فالجزع في البيت الأول مثبت للأعداء ، منفى عن قوم الشاعر فلا يجد الجزع ولا الخضوع لنفوسهم سبيلا، ولكن الشاعر لا يكتفي بذلك بل يجري مقارنة في البيت الثالث بين أعدائه التغلبيين من جانب وبين غيرهم من قبائل العرب الأخرى من جانب آخر في قوله: (حتى أويتم ولا يأوي لكم أحد) فأويتم الأولى مثبتة والثانية منفية، أي رَثَيتم لأنفسكم أيها التغلبيون، ولا أحد يَرْثَى لكم، ويَرِقُ لحالكم؛ لأنكم بغاة ظالمون تستحقون ما لحق بكم، وتجنون حصاد ظلمكم وبغيكم.

والحجة ذاتها يعتمدها الحارث في قوله(٤): (الكامل)

ووجدتَ ثَمَّ حلومَنا عاديَّةً وكأنَّ أعْدانا بلا أحْلامِ(٥)

---

(١) أوليفي روبول: مدخل إلى الخطابة، ص١٨٧، نقلا عن: سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٢٤٨.

(٢) ينظر: سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٢٤٨.

(٣) ديوان الحارث بن عباد، ص١٦٠،١٥٩.

(٤) المرجع نفسه، ص٢٢٨.

(٥) حلومنا: عقولنا، جمع حِلْم، وهو العقل. ينظر: تاج العروس، ج٣١، (حلم). عادية: أي منسوبة إلى قوم عاد. ينظر: المرجع نفسه، ج٨، (عود).

فالبيت جوهره فخري قائم على المقارنة بين حال الشاعر وقومه في الحرب، التي كانوا فيها أبطالًا شديدي البأس، وبين حال أعدائهم التغلبيين الذين فروا مهزومين، وقد أدى التقابل الاشتقاقي دوره في التأكيد على المقارنة، فـ(حلومنا) الأولى مثبتة لقوم الشاعر، والثانية (بلا أحلام) منفية عن الأعداء، كما أفاد استدعاء المثل (حلومنا عادية) تعميق هذه المقارنة، فالعرب تضرب المثل (أحلام عاد) عند إرادة المبالغة في القوة، يقول الثعالبي: "أحلام عاد: العرب تضرب المثل بأحلام عاد لما تتصور من عظيم خَلْقِها، وتزعم أن أحلامها على مقادير أجسامها"(١).

٢ – الحجاج بالتمثيل أو الاستدلال بالتمثيل:

يشكل التمثيل أحد أبرز الآليات الحجاجية العقلية الموظَّفة في مجال البرهنة والاستدلال، "فهو احتجاج لأمر معين عن طريق علاقة الشبه التي تربطه بأمر آخر"(٢) وتكمن حجاجية التمثيل من جهة أنه يمثل "ضربا من القياس، فالتسليم بالمقدمتين الصغرى والكبرى يقودان المتلقي إلى التسليم بالاستنتاج"(٣).

ولتوضيح ذلك يمكن التمثيل بما يأتي:

أ–مقدمة صغرى: فلان جميل الوجه

ب – مقدمة كبرى: كل جميل الوجه قمر

ن – (النتيجة) :فلان قمر

ويعد الاحتجاج بالتمثيل أقرب الآليات الحجاجية لطبيعة الشعر وألصقها بجوهره، فكون "وجه الشبه فيه عقلياً هو أمر يمنح المخاطب متعة كبيرة وتسليماً بالفرضيات المقدَّمة، وذلك عندما يكتشف دقة وجه الشبه وطرافة الاستدلال بالتمثيل"(٤).

وتكمن أهمية التمثيل أو الصورة – بحسب جابر عصفور– في أنها "تهدف إلى إقناع المتلقّي بفكرة من الأفكار، أو معنى من المعاني، وفي هذه الحالة لا تصبح الصورة الوسيط الأساسيّ الذي يجسد الفكرة، بل تصبح الفكرة في جانب والصورة في جانبٍ آخر، والإقناع له أساليبه المتنوعة التي تبدأ بالشرح والتوضيح وتقترن بالمبالغة، وتتصاعد حتى تصل إلى التحسين والتقبيح وما يتبع ذلك من

(١) عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص٧٩.

(٢) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٢٥٢.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٥٣.

(٤) محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص١٣٢.

تحول الصورة إلى طرائق جامدة للإثبات، تتشابه طريقة صياغتها مع صياغة الاستدلال المنطقي"(١).

ولا يفوتني في هذا الصدد أن أشير إلى أن النقاد و البلاغيين القدامى قد تنبهوا إلى أثر المجاز في الإقناع بالمعاني والمضامين الشعرية، ولعل الإمام عبد القاهر الجرجاني كان أكثر القدماء فطنة ووعيًا بدور التمثيل وأهميته في بناء الحجج وحمل المتلقي على الاقتناع؛ ذلك "أنّ مما اتفق العقلاءُ عليه، أن التمثل إذا جاءَ في أعقاب المعاني، أو بَرَزَتْ هي باختصار في مَعرِضه، ونُقِلت عن صُوَرها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهةً، وكَسَبها مَنْقَبةً، ورفع من أقدارها، وشَبَّ من نارها، وضاعف قُواها في تحريك النُّفوس لها، ... وإن كان حِجاجاً، كان بُرهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبَيَانه أبْهر"(٢).

وقد اعتمد الحارث بن عباد في شعره الذي بين يدي البحث على الاحتجاج بالتمثيل، وأفاد من طاقته الحجاجية في إقناع المتلقي، ومن ذلك توظيفه لبعض الصور الحجاجية التشبيهية، فيقول(٣): (الخفيف)

وأثَـــرتُم أبـــا بُجيـــرٍ عَلـــيكُمْ كَـــأخي غابَـــةٍ أبـــي أشـــبالِ

فهو يتهدد في هذا البيت المهلهل بن ربيعة والتغلبيين معلنا إياهم بتأهبه لخوض حرب ضروس ضدهم انتقاما وثأرا لبجير، وقد احتاج الشاعر إلى ما يدعم به هذا التهديد ويجعل المتلقي أكثر اقتناعا به، وبأنه – أي الحارث –لا يزال قادرا على القتال وامتطاء ظهور الجياد وإن كان شيخا كبيرا تقدمت به السن وطال به العمر ، فاعتمد على توظيف الاحتجاج بالتمثيل من خلال تشبيه نفسه بالأسد شديد الضراوة، الذي يثور حماية لصغاره ودفعا عنهم، ولا شك أن هذه الحجة أبلغ في الإقناع وإثارة الرعب في النفوس من الكلام العادي، ويبدو ذلك من خلال المقارنة بينهما على النحو الآتي:

_ الحارث رجل شجاع يريد الانتقام لابنه.

–الحارث أسد شديد الافتراس يفتك بمن يجد.

---

(١) جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩٢م، ص٣٣٢.

(٢) عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه/ محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، دت، ص١١٥.

(٣) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٤.

ومن أبرز مقومات الصورة الحجاجية عند الحارث أنها مستمدة من بيئته الجاهلية – شأنه في ذلك شأن غيره من الشعراء الجاهليين – مما يدل على وعيه بثقافة المتلقين المستهدفين بنصوصه، مما يجعل هذه الصور أكثر فعالية وإقناعا في أولئك المتلقين، كتشبيهه فرسان قبيلته بالليوث، مبرهنا بذلك على قوتهم وشجاعتهم، ومن ذلك قوله[١]: (الوافر)

كأنَّـــا غُـــدْوَةً وبَنِـــي أَبِيْنَـــا غَـــدَاةَ الخَيـــلُ تَفْـــزَعُ بالـــذُّكُور[٢]

ضـــراغمُ ســـاورت فـــي الحَـــيِّ يُحْمَـــى عليهـــا كُـــلُّ ذي لَبَـــدٍ هَصُـــورِ[٣]

تُجالـــدُ فـــي كَتائـــبَ مِـــن عَلِـــيٍّ بفِتْيَـــانٍ كأمثـــالِ الصُّـــقورِ

بِجَنْـــبِ عُـــوَيْرِضٍ لمَّـــا التَقَيْنـــا ونَـــارُ الحـــربِ ســـاطعةُ السَّـــعيرِ[٤]

فَـــدَانَتْ تَغْلِـــبٌ فـــي الحـــرب لمَّـــا نَـــزَلْنَ بِـــداهياتٍ فـــي الأُمُـــورِ

فالأبيات تصوير لحال رجال بني بكر قوم الشاعر في صورة النموذج الذي يستوجب الاقتداء، فهم فى أثناء حومة المعركة واشتداد القتال أبطال شجعان، يضاربون بالسيوف ويغيرون على أعدائهم بلا هوادة، وهذا ما جعل هؤلاء الأعداء يصغرون ويذلون ويفرون من المعركة مهزومين لا يلوون على شيء، وقد احتاج الشاعر من الحجج ما يدعّم به ما ذهب إليه، فعمد إلى هذه الصورة الحجاجية التشبيهية، فشبه رجال بني قومه بالأسود شديدة الضراوة والافتراس، والصقور التي لا تخطئ هدفها وفريستها، إدراكا منه بقيمة هذه الصور وفعاليتها في قومه الذين يكبرون القوة ويعظمونها.

ومن الصور الحجاجية المعتمدة على التشبيه أيضًا، قوله[٥]: (الوافر)

وعمـــروٌ فـــي الـــوَغَى أليـــاثُ حَـــربٍ كـــأنَّ رِمـــاحَهُمْ أشْـــطَانُ بِيـــرِ

فهو يمتدح فرسان قبيلة عمرو – أحد بطون بكر – ويذكر حميتهم وشجاعتهم في هذه الحرب، ويحتج لذلك عن طريق تشبيههم بالألياث، وقد ضاعف الحارث في هذه الصورة الحجاجية حين اعتمد على صورة تشبيهية أخرى في الشطر الثاني من البيت، فشبه رماح هؤلاء الفرسان في كثرتها

---

(١) المرجع نفسه، ص١٧٠.

(٢) الذكور: سَيْفٌ مُذَكَّرٌ أَيْ صَارِمٍ. أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج٢، مادة (ذكر).

(٣) هصور: من أسماءِ الْأسد، يقال: هَصَرَ الفَرِيسةَ يَهْصِرُها هَصْرَاً، إذا كَسَرَها وأمالَها إِلَيْهِ. ينظر: الصحاح، ج١٤، مادة (هصر).

(٤) عويرض: اسم مكان حدثت فيه معركة بين بكر وتغلب.

(٥) ديوان الحارث بن عباد، ص١٧٤.

واتصالها وتتابعها بحبل البئر، ولا يخفى أن هاتين الصورتين مما هو متعارف عليه في البيئة الجاهلية، مما يجعلهما أكثر تأثيرا وإقناعا للمتلقي.

و قريب من الصورة السابقة قوله[1]: (الوافر)

غَـــداةَ صَـــبَحْتُهُم شَـــعْواءَ تُـــرْدِي بأُسْـــدٍ لا تَمَـــلُّ مِـــن الزَّئِيـــرِ

حيث يفتخر الشاعر برجال قومه الذين لا يملون كثرة الضرب والطعان والوثوب على الأعداء في المعركة، ويستدعي للبرهنة على صحة ما ذهب إليه هذه الصورة الحجاجية القائمة على الاستعارة التصريحية، فيشبههم بالأسود الضارية التي لا تمل من الذئير.

ومن أبرز الصور الحجاجية التي استمدها الشاعر من بيئته الجاهلية، صورة الجمال التي استعان بها في مواضع عدة في شعره، من أبرزها قوله[2]: (الخفيف)

أَصـــبَحَت وائِـــلٌ تَعِـــجُّ مِـــنَ الحَـــر بِ عَجـــيجَ الجِمـــالِ بِالأَثقـــالِ

فهو يصور الآثار القاسية للحرب التي أنهكت أبناء العمومة من البطون والقبائل التي يرجع نسبها إلى وائل بن قاسط، فلم يجنوا من هذه الحرب سوى التفرقة والضعف والإجهاد، وقد برهن الشاعر على ذلك من خلال استحضار صورة الجمال التي أجهدها التعب والحمل الثقيل، فقد أصبحت قبائل وائل تئن من وطأة هذه الحرب وشدتها كما تئن هذه الجمال من كثرة الأحمال وثقلها على ظهورها.

ومن استعماله لتلك الصورة أيضا، قوله[3]: (الخفيف)

قَرِّبـــا مَـــربَطَ النَعامَـــةِ مِنّـــي لَقِحَـــت حَـــربُ وائِـــلٍ عَـــن حِيـــالِ

يكشف الشاعر من خلال هذا البيت عن نقطة التحول الكبرى في موقفه من هذه الحرب الغاشمة بعد مقتل ابنه بجير، ومن أجل أن يبرهن الحارث لمتلقيه على هذا التحول عمد إلى استدعاء هذه الصورة الحجاجية القائمة على استعارة الناقة التي حملت بعد أن كانت حائلا لفترة من الزمن، وتشي هذه الصورة بشيء غير قليل من الإرهاب بقوة الحرب وشدتها؛ لأنه إذا "بقيت الناقة أعواما لم تلقح ثم ألقحت كان أقوى لولدها كما أن الأرض إذا لم تزرع أعواما كان أكثر لنباتها لأن النتاج

(١) المرجع نفسه، ص١٧٢.

(٢) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٢.

(٣) المرجع نفسه، ص١٩٩.

بمنزلة الحرب عندهم"[١]، وبهذا يكون الشاعر استطاع أن يكشف عن التحول في الموقف عن طريق التحول الحسي والفني النابع من هذه الصورة الحجاجية.

وليس يشترط أن يكون الاستدلال التمثيلي قائما على التشبيه أو الاستعارة لكي يؤدي وظيفة حجاجية، ولكنه قد يكون كناية وتتوفر على قدرة حجاجية عالية، ومن ذلك قول الشاعر[٢]: (الكامل)

شَـــبِعَتْ نُسُـــورُ الجَـــوِّ مِـــن قَـــتْلاهُمُ بحُجُولِهـــــا وحَواصِـــــلُ الغِربَـــــانِ

فَتَـــرَى النُّسُـــورَ عَواكِفًـــا مِـــن حَـــولِهِمْ يَنْهَشْـــــــنَهُمْ وكَواسِـــــرَ العِقْبَـــــانِ

فالشاعر يصور كثرة تقتيلهم في صفوف الأعداء، وقد اعتمد على الصورة الحجاجية الكنائية للبرهنة على ذلك، فقد استحضر صورة النسور التي شبعت من القتلى، والغربان التي امتلأت حواصلها من لحومهم، فأكد بذلك صحة قوله بكثرة القتلى من الأعداء.

(١) موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر بن الحسن الجواليقى: شرح أدب الكاتب لابن قتيبة قَدَّمَ له/ مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت)، ج١، ص٢٢٦.

(٢) ديوان الحارث بن عباد، ص٢٣٦.

المبحث الثاني

الطرائق الانفصالية للحجاج في شعر الحارث

ويعمد المحاجج فيها إلى الفصل بين ما يشكل جزءا واحدا؛ كأن يقوم بالفصل بين ظاهر الشيء وحقيقته، أو أن يضيق مفهوما من المفاهيم أو يوسعه؛ لكي يكون بإمكانه سحبه على من يريد، والغاية الحجاجية من هذا الفصل إنشاء المحاجج أحكاما ذاتية، حيث يقوم من خلال هذه الطرائق الانفصالية بهدم ثوابت وإقامة أخرى، واستبدال قيم وإحلال أخرى محلها، وهما تقنيتان رئيستان:

١ – الحجج التي تستدعي القيم :

مما لا شك فيه أن لكل مجتمع منظومة من القيم المتفق عليها لدى جميع أفراده، وهذا الاتفاق هو ما يحمل المتلقي على الاقتناع والإذعان إذا تم استدعاء هذه القيم في القول أو الرأي واتخاذها مرجعا له وخلفيات يستند إليها، "فالمحتج لتبرير الآراء وإثبات المواقف يعتمد قيما ينتقيها بدقة بحيث تلائم أهدافه الحجاجية وغايات خطابه المنشودة، فترى المحاجج يرفض فكرة ما بحجة أنها تعارض قيمة معينة ويدعو إلى موقف ما باسم قيمة محددة، وينعى على الخصم سلوكا ما لأنه يتنافى مع قيمة واحدة أو مجموعة قيم"(١).

ويعد الحجاج بالقيم من التقنيات الحجاجية الأكثر شيوعا واستعمالا في الشعر الجاهلي؛ ذلك أن المجتمع الجاهلي مجتمع قيمي بطبيعته، يقدس القيم والأعراف والعادات، وقد فطن الشعراء الجاهليون إلى أثر الاحتجاج بالقيمة على المتلقي، ومن ثم قاموا بتوظيفها في كافة الأغراض الشعرية، لاسيما في أغراض الفخر والمدح والرثاء، والحجاج في الشعر الجاهلي قائم على منظومة القيم المرغوبة في هذا المجتمع، فتجده "يرتبط بالصفات المحمودة من حسب شريف ماجد، ونسب أصيل كريم، وعزة، وقدرة، وشجاعة، وإخاء، ومروءة، ووفاء وكثرة عدد، وإجارة، ونجدة، وفخر بالحلم والسيادة"(٢)، ومن ثم فالصفات الموجودة في أشعار الجاهليين تكاد تكون واحدة، وثابتة في ظل منظومة القيم الجاهلية، والتي جمعها قدامة بن جعفر في أربع فضائل رئيسة هي: العدل والعقل والعفة والشجاعة، وما يعود إليها من فروع(٣).

وقد ظهر الاحتجاج بالقيم بوضوح في شعر الحارث، وخاصة في المواضع التي تعرض فيها لرثاء ابنه بجير معتمدا فيها على منظومة القيم السائدة في المجتمع الجاهلي، وبما يتناسب مع غرض

---

(١) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٢٧٠.

(٢) حسين جمعة: الانتماء وظاهرة القيم العربية في القصيدة الجاهلية، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع٦٣، أبريل ١٩٩٦م، ص٨٢، ٨٣.

(٣) قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي: نقد الشعر، مطبعة الجوائب – قسطنطينية، ط١، ١٣٠٢هـ، ص٢٢.

الرثاء، "فالرثاء تفجع وتمجيد، أما التفجع فهو إظهار الحرقة و الألم لفقدان المرثي، وأما التمجيد فهو تعداد خصاله وبيان فضائله على نحو يعمق فاجعة الموت و يثبت مفهوم الفقد"(١)، ومن ذلك قول الحارث من (الخفيف)(٢):

قَرِّبـــا مَـــربِطَ النَعامَـــةِ مِنّـــي إنّ قَتـــلَ الكَـــريمِ غَيَّـــرَ حـــالي
قَرِّبـــا مَـــربِطَ النَعامَـــةِ مِنّـــي لِحَلـــيمٍ مُتَـــوَّجٍ بِالجَمـــالِ
قَرِّبـــا مَـــربِطَ النَعامَـــةِ مِنّـــي لِكَـــريمٍ ذي نَجـــدَةٍ وَنَـــوالِ
قَرِّبـــا مَـــربِطَ النَعامَـــةِ مِنّـــي لا يبـــاعُ الرِجـــالُ بَيـــعَ النِعـــالِ
قَرِّبـــا مَـــربِطَ النَعامَـــةِ مِنّـــي لِلشـــريفِ المُتَـــوَّجِ المِفضـــالِ

فقد استدعى الشاعر من القيم العالية والأخلاق الرفيعة ما يحتج به لمكانة ابنه المرثي، من أجل إذاعة مناقبه وتخليد ذكره، وبالنظر إلى الصفات التي وظفها الحارث في رثاء بجير نجد أنه قد ركز على جملة من الصفات السائدة في السياق الثقافي للمجتمع الجاهلي، فبجير كان: مفضالا، شجاعا، قويا، جوادا، حليما، جميلا، كريما، ذا نجدة ونوال، معطاء، شريفا، سيدا في قومه).

واختيار الحارث هذه الصفات في إظهاره لخصال بجير ونشر فضائله لم يكن بغرض تخليد ذكره والارتفاع به إلى المنزلة التي يستحقها بعد موته فحسب، ولكن هناك هدف آخر يقصده الشاعر إضافة إلى ذلك، وهو إثارة الحماسة في صدور المحيطين به واستفزازهم للقتال، وإقناعهم ضمنيا بخوض الحرب من أجل إدراك الثأر، فبجير لم يكن شخصا تافها لا يعتد به، وإنما كان شخصا تجتمع فيه كافة الصفات التي تجعله يتبوأ منزلة الرفعة والسيادة في قومه، وتجعل من موته خسارة فادحة لهم؛ ولذا فإن شخصا مثل بجير وفي مكانته لا يباع بيع النعال، ولا يمكن بحال من الأحوال السكوت عن ميتة الغدر والسوء التي لحقته، ومن ثم وجب إدراك الثأر لمحو هذا العار.

ولكى يؤدى الحجاج دوره المنشود فى شحذ الهمم وإثارة النفوس، قام الشاعر بتوظيف التكرار الملح لعبارة: (قربا مربط النعامة مني) والذي يوحي بسيطرة فكرة الثأر والانتقام على ذهنه، فلا يخفى "أن التكرار في هذه المواضع كلها له علاقة بظروف الشاعر النفسية وطبيعة حياته البدوية، ولا شك في أنه كان يلاحظ أن التكرار يثير الحماسة في صدور المحيطين به ويستفزهم للقتال، ومن ثم استعمله"(٣).

---

(١) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٤٠٣.

(٢) ديوان الحارث بن عباد، ص٢٠٥.

(٣) نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر، منشورات مكتبة النهضة، ط٣، ١٩٦٧، ص٢٣٣.

١- ١- حجة الاستحقاق:

ومدار هذه الحجة "على تقويم حدث معين أو موقف محدد تقويما قيميا عاما فيعتبره حصيلة ظروف معينة ونتاج أمور متظافرة أدت إليه بصورة منتظرة وأفرزته بشكل يوافق طبيعتها، وبموجب هذه الحجة نقوّم ما تعرض إليه أحدهم فنقول إنه نال ما استحقه ... ونخاطب قوما آخرين فنقول إنهم يحصدون ما كانوا زرعوه"(١).

وبهذا تبدو حجة الاستحقاق – بما هي طريقة في استدعاء القيم – ملزمة إلى حد بعيد، أي أنها يعسر ردها، فالقول بأن فلانا نال ما استحقه من شأنه أن يغلق المنافذ أمام أي حجاج مضاد، وأن يقطع الطريق أمام المتلقي الشاك المتردد أو المعارض المندد(٢).

ومن ذلك قول الحارث(٣): (الكامل)

ونَهَيْتُ جَسّاسًا لِقَاءَ كُلَيْبِهِمْ خَوفَ الّذِي قَد كان مِن حَدَثَانِ

ولَقَدْ أَبَى والبَغْيُ مُهْلِكُ أَهْلِهِ إلا مَنِيَّتَه بِحَدِّ سِنانِ

ونَهَيْتُ بَعْدُ مُهَلْهِلًا عن حَربِنا وزُحُوفِ أقْرانٍ إلى أقْرانِ

فَأَبَى مُهَلْهِلُ فاسْتُبِيحَ قَرَارُه قَسْرا بِكُلّ أخي لقا وطِعَانِ

فقد بنيت هذه الأبيات على حجة الاستحقاق، فالشاعر قد نهى جساسا عن قتل كليب ولكنه أبي إلا أن يقتله، وقد رأى الشاعر أن مقتل كليب أمر يستحقه وحصاد يجنيه؛ لأنه – كما تذكر بعض الروايات(٤) – كان طاغية ظالما، فكان الناس إذا حضروا المياه لم يسق أحد منهم إلا من سقاه، وإن بدا فأصابهم مطر لم يتحوض إنسان منهم حوضاً إلا ما فضل عن كليب، وكان يقول: اني قد أجرت صيد كذا وكذا فلا يصيد أحد منها شيئًا ،وكان لا يمر أحد بين يديه إذا جلس، ومن ثم فإن مقتل كليب كان منتظر الوقوع؛ لأن البغي مهلك أهله، ولا يجني الظالم المتجبر إلا نتيجة ظلمه.

ثم نهى الشاعر بعد ذلك المهلهل بن ربيعة عن حربهم، وأخذهم بجريرة جساس، فاستهان بهم وبقوتهم وأبى إلا أن يحاربهم فكانت النتيجة هزيمته واستباحة دياره عنوة وقسرا، وهذه الهزيمة أمر يستحقه المهلهل وحصاد يجنيه؛ لأنه لم يستجب لنهي الشاعر ونصحه.

---

(١) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٢٨٢.

(٢) ينظر: المرجع نفسه، والصفحة.

(٣) ديوان الحارث بن عباد، ص٢٣٦، ومنع (مهلهل) من الصرف، وقصر همزة (لقاء) للضرورة.

(٤) ينظر: المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي: أمثال العرب، تحقيق/إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٢٩. وينظر: محمد أحمد جاد المولى/علي أحمد البجاوي/ محمد أبو الفضل إبراهيم: أيام العرب في الجاهلية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، (د.ت)، ص١٤٢، ١٤٣.

ومن الأبيات التي يظهر فيها استعمال الحارث لهذه الحجة، قوله[١]: (الطويل)

بَنِـــي تَغْلِـــب لَـــم تُنْصِـــفُونا بقـــتْلكُمْ بُجَيْـــرًا و لمَّـــا تُقْتَلُـــوا فـــي المَجَـــالسِ
وحَتَّـــى تُبِـــدَّ الخيـــلَ فـــي عَرَصَـــاتِكُمْ وتَلْقَـــون أيَّامًـــا شِـــدَادَ المَنَـــاحِسِ
كأيَّـــامِ عَـــادٍ إذ بَغَـــوا وتَكَبَّـــرُوا فَأَضْـــحَتْ قُـــراهمْ كالقِفَـــارِ الَبسَـــابِسِ
سَـــلُوا تُخْبَـــروا عَـــنْ مَعْشَـــري أيُّ مَعْشَـــرٍ وعَنِّـــي إذا لاقَيْـــتُكُمْ أيّ فـــارِسِ

فالأبيات واضحة في التهديد والوعيد لأولئك البغاة الظالمين الذين بغوا وتجبروا وقتلوا ابنه ظلما وعدوانا، وقد عمد الشاعر إلى استعمال حجة الاستحقاق كي يبرر من خلالها ما يذهب إليه، فما سيفعله بهم الشاعر ما هو إلا ردة فعل على ظلمهم وبغيهم عليه، وجاء التشبيه ليدعم حجاجية الأبيات، حيث قياس الحالة الراهنة على حالة سابقة، وإقامة تماثل بين وضعية التغلبيين قتلة ولده، وبين حال قوم عاد الذين تكبروا وتجبروا؛ فكانت نتيجة ذلك هلاكهم، فأضحت بيوتهم خاوية على عروشها، وهذا القياس والتماثل الذي عقده الشاعر بين الوضعيتين يقود المتلقي إلى الإذعان والتسليم بالنتيجة نفسها.

ويظهر استعمال هذه الحجة أيضا في قوله[٢]: (الخفيف)

يـــا بَنـــي تَغلِـــبٍ خُـــذوا الحِـــذرَ إنّـــا قَـــد شَـــرِبنا بِكَـــأسِ مَـــوتٍ زُلالِ[٣]
فاشـــرَبوا كأسَـــها المَريـــرَةَ صِـــرفاً حـــانَ مِـــنكُم تَصَـــرُّمُ الآجـــالِ
يـــا بنـــي تَغلِـــبٍ سَـــتَلقون مِنّـــا نَطحَـــةً تَســـتَبيحُ غِـــرَّ الحِجـــالِ[٤]
يـــا بَنـــي تَغلِـــبٍ زَعَمـــتُمْ بِأنّـــا لا نُبـــيحُ الـــدِيارَ بإستِئصـــالِ[٥]
يـــا بَنـــي تَغلِـــبٍ قَتَلـــتُم قَتـــيلاً مـــا سَـــمِعنا بِمِثلِـــهِ فـــي الخَـــوالي[٦]

فهو يتوعد بني تغلب بحرب ضروس بعد مقتلهم بجيرا عنوة وغدرا، ويبرر ذلك من خلال حجة الاستحقاق، فهم لن يجنوا إلا ما قد زرعوه من استخفاف وإهانة وتقتيل لرجال قبيلة بكر بلا ذنب اقترفوه.

---

(١) ديوان الحارث بن عباد، ص١٨٥، ١٨٦.
(٢) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٦.
(٣) صرف (تغلب) للضرورة .
(٤) صرف (تغلب) للضرورة .
(٥) صرف (تغلب) للضرورة .
(٦) صرف (تغلب) للضرورة .

والشاعر عندما يكرر قوله:(يا بني تغلب) بهذه الصورة، إنما يقصد – إلى جانب تأكيد كرهه الشديد وبغضه لهم – إثارة انتباههم وتوجيه أذهانهم نحو هذه الصور المستحضرة، بما يتحقق به إرهابهم وإثارة الرعب في قلوبهم.

٢– الحجج التي تستدعي المشترك :

وهي تلك الحجج التي توظف المبادئ العامة و المواضع المشتركة التي يقر بها جميع الناس لكونها ذات طابع كوني مقنع، ومن أهمها المبدأ القائل بأن "كل واحد من الأشياء مما له وقت يخصه، إذا وجد في وقته آثر منه إذا وجد في غير وقته"(١).

وقد بنى الحارث على هذا المبدأ قوله الآتي(٢): (البسيط)

إنَّـــا لَنَمْنَـــعُ مَرْعانـــا وسَـــاحتنا منَّـــا فلـــيس لـــدى الهَيْجـــاءِ نُضْـــطَهَدُ

الطَّـــاعِنون إذا مـــا الخَيـــلُ شَمَّصَـــهَا وقْـــعُ القَنَـــا وَهْـــي مِـــن وقْـــع القَنَـــا حُـــرُدُ(٣)

الضَّـــاربون إذا مـــا حَوْمَـــةٌ كَلِبَـــتْ فَـــنَحْن فيهـــا إذا جـــدَّ الـــوغَى أُسُـــدُ(٤)

فالشاعر يحتج لقوة بأسه وشجاعته وقومه، وأنهم يمنعون ديارهم ومرعاهم من الأعداء، فهم أبطال المعارك وفرسان الحروب، ويبرهن على هذه الشجاعة والقوة من خلال الاعتماد على الموضع المذكور، حين جعل هذه الصفات حاضرة في الأوقات التي تتأكد فيها الحاجة إليها، وهو الوقت الذي تشتد فيه المعركة ويحمى وطيسها، حتى إن الخيل لتفر وتنكص وتحرن من كثرة وقع النبال عليها واشتداد الوغى، أما هم فثابتون في أرض المعركة خير ما يكون الثبات، فلا يزالون يضاربون بالسيوف ويطعنون بالحراب والرماح، ويثبون على أعدائهم كما تثب الأسود الضارية على فريستها.

ومما أسهم في التكثيف الحجاجي الاختيار الأسلوبي في قوله:(جد الوغى) فليس هناك موضع أشد حاجة للشجاعة والقوة من الموضع الذي تشتد فيه الوغى، كما أفاد تقديم جملة (إذا جد الوغى) على الخبر (أسد) في قوله :(فنحن فيها إذا جد الوغى أسد) إبراز وتأكيد هذا الموضع المذكور، وكذلك جاء التكرار في قوله: (وقع القنا وهي من وقع القنا حرد) مؤكدا للموضع ذاته وموضحا له،

---

(١) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٢٩٠.

(٢) ديوان الحارث بن عباد، ص١٥٨، ١٥٩. وسكّن الهاء في (هي) للضرورة.

(٣) شمَّص الخيل: يُقَالُ شَمَصْتُ الْفَرَسَ، إِذَا نَزَّقْتَهُ لِيَتَحَرَّكَ. وَيُقَالُ شَمَّصَ إِبِلَهُ، إِذَا طَرَدَهَا طَرْدًا عَنِيفًا. ينظر: مقاييس اللغة، ج٣، (شمص). حرد: غاضبة. ينظر: المرجع نفسه، ج٢،(حرد).

(٤) حومة القتال: معظمه وأشد موضع فيه. ينظر: لسان العرب، ج١٢، (حوم). كلبت: اشتدت. ينظر: لسان العرب، ج١، (كلب).

فيوحي التكرار والتتابع للفظي (وقع القنا) بتتابع وتكرار وقوع الرماح على الخيل، مما يدل على اضطرام المعركة واشتدادها.

وقد اعتمد الحارث على المبدأ نفسه في رثائه لبجير، فيقول(١):

لَهـــفَ نَفســـي عَلـــى بُجَيـــرٍ إذا مـــا جالَـــتِ الخَيـــلُ يَـــومَ حَـــربٍ عُضـــالِ

وَتَســـــاقى الكُمـــــاةُ سُـــــمّاً نَقيعـــــاً وَبَـــدا البـــيضُ مِـــن قِبـــابِ الحِجـــالِ

وَسَـــعَت كُـــلُّ حُـــرَّةِ الوَجـــهِ تَـــدعو يـــا لَبَكـــرٍ! غَـــرّاءَ كَالتِمثـــالِ

فالأبيات رثاء لبجير وتمجيد له وتفجع على صفات القوة والشجاعة وشدة البأس التي انتهت بموته، ويحتج الشاعر لذلك بالموضع المذكور، فقد كانت هذه الشجاعة حاضرة في وقت تتأكد فيه الحاجة إليها، وهو الوقت الذي تشتد فيه المعركة، ويعظم فيه الخطب، وهذا ما يجعل من موته فاجعة كبرى وخسارة فادحة.

(١) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٢.

المبحث الثالث

العلاقات الحجاجية في شعر الحارث

لا يتوقف الحجاج في النص الشعري على حشد أنواع الحجج المختلفة، وسوقها متتابعة متتالية، ولكنه يتجاوز ذلك إلى انتقاء الآليات والوسائل اللغوية التي تشد أجزاء هذا الحجاج ومفاصله بعضا إلى بعض، حيث الوحدة الحجاجية التي تجتمع حولها هذه الأجزاء، والنتيجة العامة أو النتائج المرصودة للخطاب، والتي يقصد منشئ النص أن يقود إليها المتلقي.

وهذا ما جعل منظري الحجاج يقفون عند الروابط الحجاجية، وهي جملة من الأدوات اللغوية التي يوظفها الشاعر في نصه، وما ينتج عنها من علاقات تسهم في ترتيب وتماسك البناء الحجاجي في النص، "فالروابط الحجاجية هي جملة من الأدوات التي توفرها اللغة ويستغلها الباث، ليربط بين مفاصل الكلام ويربط بين أجزائه، فتتأسس عندها العلاقة الحجاجية المقصودة التي يراها مؤسس الخطاب ضرورية، لتضلع الحجة المعتمدة بدورها كاملا لا نقص فيه، كأن يعتمد الرابط (بيد أن) ليؤسس علاقة حجاجية، هي علاقة التناقض، أو الرابط (لأن) لتكون العلاقة السببية"(١).

وقد ماز أغلب هؤلاء المنظرون بين الروابط والعوامل الحجاجية، فالروابط عندهم الأدوات اللغوية التي توفرها اللغة للربط " بين قولين أو حجتين على الأصح أو أكثر، وتسند لكل قول دورا محددا داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة، ويمكن التمثيل للروابط بالأدوات التالية: بل، لكن، حتى، لاسيما، إذن، لأن، بما أن، إذ ...إلخ "(٢)، أما العوامل الحجاجية فهي عندهم العناصر اللغوية التي تدخل في أجزاء القول الواحد، وتسهم في بنائه وتماسكه، مثل أساليب الحصر والنفي والتوكيد والألفاظ : منذ، وعلى الأقل(٣).

و البعض لا يفرق – وأنا أوافقهم – بين الروابط والعوامل الحجاجية، فهما عندهم شيء واحد(٤)، والبعض يرى أن " أشكال الربط تتسع لغير ذلك مما لا يدرج هاهنا ... فالنص تتوالى وحداته وفقا لمنطق ترابطي هو المنطق الحجاجي المنبثق من بنية اللغة نفسها"(٥)، فأدوات الربط الحجاجي لا

---

(١) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٣١٩.

(٢) أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م، ص٢٧.

(٣) ينظر: شكري المبخوت: نظرية الحجاج في اللغة، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، فريق البحث في البلاغة والحجاج، ص٣٧٧.

(٤) ينظر: سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٣١٩.

(٥) محمد عبدالباسط عيد: في حجاج النص الشعري، ص٢٦.

تقتصر على ما سبق، بل تمتد لتشمل كافة الاختيارات الأسلوبية والمعجمية والإيقاعية؛ لأن هذا النوع من الربط أكثر ورودا في الشعر العربي وأقرب لطبيعته.

ومهما يكن من شيء فإن الروابط تُظهر دور اللغة في تماسك الخطاب الحجاجي، وقد تتجلى هذه الروابط في صورة أدوات لغوية واضحة ظاهرة على سطح النص، تربط بين أطرافه بطريقة منسجمة تعبر عن قصدية المنشئ، كما تكون الروابط – في بعض الأحايين – غير لغوية أو شكلية؛ بأن تكون روابطًا ضمنية أو منطقية يستنتجها المتلقي بنفسه.

وينشأ عن هذه الروابط – اللغوية الظاهرة وكذلك الضمنية – ما يعرف بالعلاقات الحجاجية، ولهذه العلاقات عدة وظائف يمكن إجمالها فيما يأتي:

أولا: إنتاج خطاب حجاجي متماسك البنيان، من خلال الربط بين مفاصله وأجزائه بشبكة من العلاقات، تتمحور جميعها حول النتيجة العامة أو النتائج التي يقصد إليها منشئ الخطاب.

ثانيا: تقوية الحجة أو الحجج المعتمدة بالنص؛ كي تؤدي دورها كاملا لا نقص فيه، من خلال عرضها مترابطة بروابط لغوية، أو بروابط دلالية ضمنية، تربط الأقوال أو الحجج بالنتائج على مستوى الأبيات أو على مستوى أجزاء البيت الواحد.

ثالثا: تقلل هذه الروابط من إمكانات التأويل لدى المتلقي من خلال "القضاء على تعدد الاستلزامات والنتائج، وذلك بنقل المتلقي من التعدد والغموض إلى وحدة النتيجة والمقصد من الملفوظ بتقييد الإمكانات الحجاجية للخطاب"(١).

ولما كان الكشف عن دور العلاقات الحجاجية في ترابط البناء الحجاجي وتحقيق التناغم والانسجام بين أجزائه لا يتحقق إلا من خلال النظر في مجمل النص، فقد باتت الحاجة إلى اختيار أحد النصوص الشعرية للحارث بن عباد ضرورية؛ ومن ثم فقد اخترت القصيدة التي خصصها الحارث لرثاء ابنه بجير؛ وذلك لكونها تمثل اللحظة الفارقة في تغيير موقفه من الحرب، فقد انطلق الحارث في هذه القصيدة من موقف مغاير تماما من الحرب التي طالما اعتزلها، وحذر قومه من عواقبها، وهو الآن يدعوهم إلي خوضها، ويبدو أن الحارث كانت لديه بعض المخاوف من تخاذل قومه عن القتال معه، فَيُعامل بالمبدأ نفسه الذي أعلنه منذ بداية الحرب بقوله: (هذه الحرب لا ناقة لي فيها ولا جمل)؛ وهذا إما لكونه قد كبرت سنه وضعفت قوته، وإما لأنهم قد اعتزلوا الحرب لعقود طويلة، فقد ألفوا الأمن وسهولة العيش، وتلك طبيعة النفس البشرية.

---

(١) عز الدين الناجح: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين للنشر والتوزيع، تونس، ط١، ٢٠١١م، ص٣٥

ومن ثم، فإن فكرة تغيير الحارث لموقفه من الحرب، ومحاولته إقناع قومه بذلك، قد وجهت قصيدته وجهة حجاجية، فالقصيدة في ظاهرها رثاء لبجير وإذاعة لفضائله وتخليد لذكره من خلال الشعر، ولكنها تهدف كذلك إلى تحقيق نتيجتين رئيستين: أولاهما: إقناع الشاعر قومه بالقتال معه؛ لإدراكهم ثأر بجير من قاتليه، ومحو عار الغدر والإهانة.

أما الأخرى: فهي إرهاب وتخويف المهلهل بن ربيعة خاصة وقبيلة تغلب عامة قبيل البدء في المعركة، وهذا يبدو واضحا من خلال ذكر الحارث عدة المعركة وعتاد القتال، فيما يشبه الاستعراض الحربي في الوقت الحاضر.

وبهذا يكون النص إزاء نوعين من المتلقين يتوجه إليهما بعلاقاته وحججه ، النوع الأول: هم قبيلة بكر قوم الشاعر كي يستثير هممهم ويحثهم على القتال، والنوع الآخر: فهو المهلهل بن ربيعة بخاصة وقومه التغلبيون بعامة، يتوعدهم بالقتل والإبادة، ويرهبهم بقوته وعتاده قبيل البدء في المعركة، فظاهر الخطاب أنه موجه لقوم الشاعر ولكنه أيضا موجه للمهلهل وقومه.

وبالنظر في مرثية الحارث نجد أنه قد ربط بين مفاصلها بجملة من الروابط اللغوية والدلالية، التي نتج عنها علاقات حجاجية متنوعة، أدت بدورها إلى تماسك النص وإحكام نسجه، وسوف أقف بالدراسة عند بعض النماذج التي تمثل هذه العلاقات، دون الوقوف عند البعض الآخر؛ لأنها كثيرة ممتدة على طول النص.

والعلاقات الحجاجية متنوعة يمكن إجمالها فيما يأتي: عدم الاتفاق أو التناقض، التتابع، السببية، الاستنتاج، الاقتضاء، وتتمثل العلاقات بمرثية الحارث فيما يأتي:

١- علاقة عدم الاتفاق أو التناقض:

وتظهر من خلال المفارقة والتعارض بين قولين يتم الربط بينهما برابط لغوي يفيد هذه العلاقة، مثل: (لكن) و(بل) و(حتى)، وغيرها من الروابط التي " تشترك جميعها في إثبات القطع مع ما سبقها أو نفيه من جهة، وإثبات ما لحقها وتأكيده من جهة ثانية، فحضورها في موضع معين من النص إنما يشي بالخلاف ويؤكد أن العلاقة الحجاجية المعتمدة إنما هي علاقة عدم الاتفاق"[١].

وقد ظهرت هذه العلاقة مع مطلع القصيدة، حين ربط الشاعر بين صدر البيت الأول وعجزه بالرابط (غير)؛ لينتج عن هذا الربط تلك المفارقة الصارخة بين الشطرين، فدلالة الشطر الأول تؤكد حقيقة الفناء والزوال الحتمي لكافة الأشياء، فى حين تؤكد دلالة الشطر الثاني الخلود والبقاء الأزلي لله تعالى، والأعمال الصالحة، حيث يقول الحارث[٢]:

---

(١) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٣٤٧.

(٢) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩١.

كُـــلُّ شَـــيءٍ مَصـــيرُهُ لِـــزَوالِ غَيـــرُ رَبّـــي وَصـــالِحِ الأَعمـــالِ

والشاعر على هذا النحو يحاجج نفسه أولا من أجل إقناعها بضرورة التأسي والتصبر من خلال استدعاء المشترك والعام الذي يعرفه الجميع(١)، وذلك قبل أن ينتقل إلى إقناع الآخرين بما يريده ويعتقده، وكأني بالحارث في هذا البيت يحاول أن يقدم تمهيدا وتبريرا – بالوقت ذاته – للحرب التي سيخوضها مع قبيلة تغلب، فكما أنه لا حيلة في دفع الهلاك والموت، فكذلك لا حيلة للإنسان في دفع الأقدار التي لا دخل له فيها، وقد ساعد الربط بين الشطرين بـ (غير) على تقوية الحجة المعتمدة في البيت، وتوجيه المتلقي نحو نتيجة واحدة، هي عدم قدرة الإنسان وعجزه عن دفع القدر.

كما أدى الاختيار الأسلوبي لهذا المطلع إلى تعميق علاقة التناقض؛ فحقيقة أن الزوال والفناء مصير كل شيء من الحقائق البارزة والثابتة بالوقت نفسه، التي لا يتردد في قبولها أي شخص؛ ولذلك جاء المطلع خبريا تقريريا خاليا من التوكيد، معتمدا على التراكيب الاسمية، التي تدل على الثبوت والدوام.

كما يظهر الترابط بين شطري المطلع من خلال الانسجام الإيقاعي الناتج عن التقفية لشطري البيت في قوله (لزوال) و(الأعمال)، وقد أضافت هذه التقفية للبيت قوة جمالية، ساعدت على التأثير في المتلقي واستمالته، ومن ثم حمله على الإذعان، ووقوعه تحت تأثير الإقناع، إذ "إن موسيقى الشعر بنوعيها (الداخلية والخارجية) تسهم في مساعدة الشاعر على الإقناع، وتيسر له حمل المتلقي على الإذعان"(٢).

وقد حكمت علاقة التناقض أجزاءً متعددة من القصيدة، قام الشاعر بالربط فيما بينها بروابط لغوية ، مثل اعتماده على الرابط (حتى) في قوله(٣):

يـــا بُجَيـــرَ الخَيـــراتِ لا صـــلحَ حَتّـــى نَمـــلأَ البيـــدَ مِـــن رُؤوسِ الرِجـــالِ

---

(١) سبق أن تحدثت عن هذين البيتين بوصفهما شاهدا على الحجج شبه المنطقية التي تعتمد المعادلات الرياضية، وفي هذا الموضع تحدثت عنهما بوصفهما شاهدا على الحجج التي تستدعي المشترك ولا معارضة في ذلك؛ لأن الحجة يمكن ردها إلى أكثر من تصنيف لانفتاح البيت على أكثر من تأويل، ولطبيعة الحجاج البعيدة عن الصرامة والدقة اللتين لا نظفر بهما إلا في مجال البرهنة العلمية. ينظر: سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص١٩٠.

(٢) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص١٢٦.

(٣) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٢.

فالحجة المعتمدة في البيت هي الحجة (الغائية)، فقد وجد الحارث في الثأر ما يمكن أن تتعزى به النفس ويشفى به الغليل، ومن ثم فهو يقتطع على نفسه عهدا برفض الصلح إلى أن يحقق غايته، ويدرك ثأر بجير بأن يملأ البيد من رؤوس رجال قبيلة تغلب، وهنا تتلبس روح العصر الجاهلي شخصية الحارث بن عباد؛ لكونه يعلم أن من قتل بجيرا هو المهلهل بن ربيعة وحده، لكنه – على عادة الجاهليين – يأبي إلا تقتيل رجال قبيلة تغلب جميعهم في مقابل بجير.

وقد أدى الربط بـ(حتَّى) – التي تفيد انتهاء الغاية[١] – إلى تعضيد الحجة وتوجيهها نحو هذه النتيجة؛ وذلك لأن "الحجة التي ترد بعد حتَّى هي الأقوى، وهذا ما يقصده النحاة بقولهم: أن يكون ما بعدها غاية لما قبلها"[٢]، وقد أفاد الشاعر من خاصية هذا الرابط في تقوية حجته، فقرار عدم الصلح سيظل مستمرا إلى أن يبلغ الشاعر غايته، وهي أن يملأ البيد من رؤوس الرجال، ومن هنا يتضح أثر هذا الرابط في تقوية الحجة؛ فالبيد شاسعة غير محدودة لملئها برؤوس الرجال، وبهذا تكون النتيجة الضمنية التي يريد الشاعر أن يقود المتلقي إليها هي إبادة قبيلة تغلب جميعها ثأرا لبجير.

كما يتحقق الترابط اللغوي كذلك في البيت عن طريق النفي بـ (لا)، وتتحدد خصوصية النفي بهذا البيت بصفة خاصة، وفي النص الحجاجي بصفة عامة، في أنه " أسلوب لغوي تحدده مناسبات القول، وهو أسلوب نقض وإنكار، يستخدم لدفع ما يتردد في ذهن المخاطب، فينبغي إرسال النفي مطابقا لما يلاحظه المتكلم من أحاسيس ساورت ذهن المخاطب خطأ، مما اقتضاه أن يسعى لإزالة ذلك بأسلوب النفي بإحدى طرائقه المتنوعة الاستعمال"[٣]؛ ولذا أكد ديكرو على الطابع الحواري في القول المنفي فهو "يمثل عملين قوليين، أحدهما: إثبات صادر عن قائل أول، والثاني رد ودحض لهذا الإثبات صادر عن قائل ثان"[٤].

وقد اكتسبت الحجة السابقة طاقة حجاجية كبيرة من خلال النفي؛ فقوله: (يا بجير الخيرات لا صلح) يشير إلى إثبات ضمني حاصل بالفعل في الواقع أو مفترضا يتردد في ذهن المخاطب ولم يصرح به، فقام الشاعر بالرد عليه بأنه: (لا صلح) فإمكانية أن يكون هناك صلح غير موجودة أو مطروحة لدى الشاعر حتى يحقق غايته في إدراك الثأر.

---

(١) عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، ط٢٠،١٤٠٠ هـ/١٩٨٠م، ج٣، ص١٧.

(٢) أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ص٧٣.

(٣) مهدي المخزومي: في النحو العربي (نقد وتوجيه)، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٢٤٦.

(٤) شكري المبخوت: إنشاء النفي وشروطه النحوية والدلالية، مركز النشر الجامعي، تونس، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢٤٤

وغير ما سبق وردت مواضع أخرى بالقصيدة، ظهرت فيها علاقة عدم الاتفاق ذاتها، متحققة من خلال بعض الروابط التي تؤدي تلك العلاقة، ومن ذلك قول الحارث(١):

ثُـــمّ تَســـمو إلـــى الخَريـــدَةِ حَتّـــى لا تُـــواري مَواضِـــعَ الخَلخـــالِ(٢)

وقوله(٣):

قَرِّبـــا مَـــرْبِطَ النَعامَـــةِ مِنّـــي لَـــيسَ قَـــولي يـــرادُ لا بَـــل فِعـــالي

٢- علاقة الاستنتاج:

لا تعتمد هذه العلاقة على روابط لغوية محددة في الربط بين مفاصل الخطاب الحجاجي، ولكنها تعتمد على الربط الضمني بين أجزاء النص؛ "ولذا نتحدث كثيرا عن الضمني والمسكوت عنه في هذه العلاقة، إذ يترك الشاعر عادة مهمة الاستنتاج للمتلقي، أي يعرض عليه المقدمات ويوكل إليه أمر استخلاص النتيجة أو النتائج"(٤)؛ ومن ثم فإن إدراك هذه العلاقة يحتاج إلى متلق من نوع خاص يوظف كافة إدراكاته العقلية، والثقافية للوقوف عليها.

وقد حكمت هذه العلاقة بعض أبيات القصيدة، ومن ذلك قول الحارث(٥):

قُـــل لِأُمِّ الأَغَـــرِّ تَبـــك بُجَيـــراً حيـــلَ بَـــينَ الرِجـــالِ وَالأَمـــوالِ
وَلَعَمـــري لَأَبكِـــيَنَّ بُجَيـــراً مـــا أَتـــى المـــاءُ مِـــن رُؤوسِ الجِبـــالِ
حيـــلَ مـــن دونِـــهِ فَسَـــحَّت دُمـــوعي بِسِـــجالٍ كَمِثـــلِ سَـــحِّ العَزالِيـــي
لَهـــفَ نَفســـي عَلـــى بُجَيـــرٍ إِذا مـــا جالَـــتِ الخَيـــلُ يَـــومَ حَـــربٍ عُضـــالِ
وَتَســـاقى الكُمـــاةُ سُـــمّاً نَقيعـــاً وَبَـــدا البـــيضُ مِـــن قِبـــابِ الحِجـــالِ
وَسَـــعَت كُـــلُّ حُـــرَّةٍ الوَجـــهِ تَـــدعو يـــا لَبَكـــرٍ! غَـــرّاءَ كَالتِمثـــالِ

وبالنظر في هذه الأبيات نجد أنها محكومة بعلاقة استنتاجية جمعت الحجج المعروضة بها، وساعدت في توجيه المخاطب نحو نتيجة واحدة، وهي هول الفاجعة والخسارة الفادحة التي لحقت

(١) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٨.
(٢) الخريدة من النّسَاءِ: البِكْرُ الَّتِي لم تُمْسَسْ قَطُّ. ينظر: تاج العروس، ج٥، مادة (خرد).
(٣) ديوان الحارث بن عباد، ص٢٠٠.
(٤) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٣٤٧.
(٥) ديوان الحارث، ص١٩٢،١٩١.

بالشاعر، وجعل مخاطبه يشاركه المشاعر ذاتها؛ تمهيدا لإدراك الثأر لمن قُتل ظلما وعدوانا، ومحو عار الغدر والإهانة.

وقد تحقق الترابط في الأبيات على مستوى الضمائر التي وظفها الحارث توظيفًا يعمل على تقوية الحجج، وتوجيه السامع أو المتلقي نحو النتيجة المرصودة للأبيات، فقد استهل الشاعر الأبيات. بالعدول أو الالتفات عن استعمال ضمير المخاطب في الفعل (قل) إلى ضمير الغائب في الفعل (تبك) ثم إلى ضمير المتكلم في (لأبكيَنَّ)؛ وذلك لتوسيع دائرة الخطاب بما يلائم القضية المطروحة، ونقل الحارث مشاعر الجزع التي يحس بها إلى مخاطبه، وجعله يشاركه مصابه وحزنه، فالمصيبة لا تخص الحارث وحده، وإنما يشاركه فيها كافة أفراد قبيلته.

أما على مستوى الأفعال نجد الحارث قد وظفها بطريقة تحقق الترابط بين الأبيات، بما يدعم حجاجه ويدفعه نحو النتيجة، فأسلوب الأمر (قل) الذي استهل به الشاعر الأبيات، يمثل المنطلق الأول لتوجيه الحجج، فهو فضلا عن أنه يتضمن توجيها واضحا لتحقيق هدف محدد، فهو كذلك يكشف عن التفجع والحزن لدى الشاعر، ويريد أن يشاركه كل من حوله هذا الحزن، وكذلك يأتي توظيف الشاعر للفعل المضارع في (تبك) و(لأبكينَّ) وتوكيده باللام والنون للتأثير في المخاطبين وإقناعهم بهذه النتيجة، حيث التأكيد على شدة الخطب وفداحة المصاب، واستمرارية البكاء (ما أتى الماء من رؤوس الجبال) لهول تلك الفاجعة.

وهنا يتجلى دور أسلوب القسم (ولعمري) في تدعيم مقصد الشاعر، والتأكيد على تفجعه وحزنه على مقتل بجير، وتوجيه المتلقي نحو هذه النتيجة؛ فالقسم بما هو " نوع من أنواع التأكيد أو بالأحرى درجة من درجاته؛ إذ لا يراد القسم لذاته، وإنما يراد به غرض تواصلي، وهو دفع المخاطب إلى الوثوق بكلامه"[(١)].

ويعد القسم بصفة عامة من الأساليب التي توفر علاقة الاستنتاج؛ من حيث إن القسم يقوم على القياس المضمر[(٢)] الذي تكون مهمة الاستنتاج فيه متروكة للمتلقي يستخلصها ويدركها بنفسه، مما يجعلها ثابتة لديه ومقررة عنده.

وعلى ذلك يمكننا أن نستخرج من خلال القسم في البيت السابق قياسًا منطقيًا مضمرًا، يتمثل فيما يأتي:

---

(١) مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب (دراسة في تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي)، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م، ص٢١٠.

(٢) ينظر: محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، مصر، ٢٠١٤م، ص٢٧٢.

أ–مقدمة كبرى (مضمرة):كل من يقسم فهو صادق.

ب – مقدمة صغرى (مذكورة): الشاعر يقسم على استمرار بكائه حزنا على ابنه.

ن – (النتيجة) :الشاعر صادق في حزنه.

كما مهَّد استعمال القسم في بداية الأبيات السبيل لمجموعة الحجج الأخرى التي تأتي لتعضيد سلطة القسم وتقويتها؛ لأنها – كما سبقت الإشارة – لا تكفي وحدها للتأثير في المتلقي وإقناعه.

أما عن الأفعال الماضية نحو:(جالت الخيل، وتساقى الكماة، بدا البيض، وسعت كل حرة الوجه) فقد أدت دورها هي الأخرى في ترابط الأبيات، وتعضيد الحجة المعتمدة في هذه الموضع، وهي حجة (استدعاء المشترك) التي استدعى فيها الشاعر أحد المبادئ العامة، وهو أن "كل واحد من الأشياء مما له وقت يخصه، إذا وجد في وقته آثر منه إذا وجد في غير وقته"[١]، ليبرهن من خلاله على شجاعة بجير وقوته وإقدامه، من خلال التأكيد على حضور هذه الصفات في وقت تتأكد فيه الحاجة إليها، وهو الوقت الذي تهيج فيه الحرب ويشتد فيه القتال، وهذه الصفات التي فقدت بفقد بجير هي ما جعلت الشاعر عاجزا عن التأسي، غير منقطع البكاء، فقد "كان بجير عدته يوم القتال وناصره ومعينه، فأودى قتيلا في التراب مجندلا"[٢]؛ وهذا ما يجعل من موته فاجعة كبرى وخسارة فادحة للشاعر وقومه؛ لفقدانهم هذا الفارس الشجاع.

وثمة أبيات أخرى من قصيدة الحارث جمعت بين أطرافها علاقة الاستنتاج، بما يسهم في تماسكها، ويقوي الحجج الموجودة بها، ويزيد من قوة توجيهها نحو النتيجة، ومن ذلك قوله[٣]:

فـــرعَ بَكـــرٍ وخَيرَهـــا كـــانَ فيهـــا وابـــنُ شَـــيخٍ مُبَـــرزٍ مِفضـــالِ

قَتَلـــوهُ بِشِســـعِ نَعـــلٍ كُلَيـــبٍ إِنَّ قَتـــلَ الكَـــريمِ بِالشِســـعِ غـــالِ[٤]

وقوله[٥]:

فَلَقَـــد قُلـــتُ قَولـــةً غَيـــرَ فُحـــشٍ لَـــيسَ قَـــولَ السُـــفَّاهِ والأنـــذالِ

لا بُجَيـــرٌ أغنـــى قتـــيلاً وَلا رَهـــ ـطُ كُلَيـــبٍ تَزاجَـــروا عـــن ضَـــلالِ

---

(١) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر، ص٢٩٠.

(٢) أحمد إسماعيل أبو يحيى: الخيل في أشعار الجاهليين والإسلاميين، راجعه/ ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص١٠٢.

(٣) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٤.

(٤) شسع النعل: قبالها الذي يشد إلى زمامها، والزمام: السير الذي يعقد فيه الشسع، ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ج٨، مادة (شسع).

(٥) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٤.

وكذلك تحكم علاقة الاستنتاج كافة الأبيات التي تتضمن أسلوب القسم، ومن ذلك – غير ما سبق – قوله(١):

وَلَعَمري لَأقتُلَنْ بِبُجَيرٍ عَدَدَ الذَّرِّ وَالحَصى وَالرِّمالِ

وقوله(٢):

وَلَعَمري لَنَحنُ أصبَرُ مِنكُم عِندَ تَجريدِ مُرهَفاتِ الصِقالِ

وقوله(٣):

قَرِّبا مَرْبِطَ النَعامَةِ مِنّي جَدَّ وَاللهِ جِدُّ بَأسٍ عُضالِ

كما يعد التمثيل سواء أكان تشبيها أو استعارة من الأدوات التي توفر العلاقة الاستنتاجية، فهو يعتمد على استنتاج المتلقي مشابهة الحالة الثانية للحالة الأولى؛ مما يقوي الحجة، ويقود المتلقي إلى المقصد الضمني من الأبيات، ويظهر ذلك في أبيات عدة من القصيدة، من أبرزها(٤):

وأثَرتُم أبا بُجيرٍ عَليكُمُ كَأخي غابَةٍ أبي أشبالِ(٥)

وقوله (٦):

أَصبَحَت وائِلٌ تَعِجُّ مِنَ الحَر بِ عَجيجَ الجِمالِ بِالأَثقال(٧)

وقوله(٨):

أصبَحَت حَربُنا وَحربُ أبينا بِاستِعارٍ تَشُبُّ بِالأهوالِ

وقوله(٩):

قَرِّبا مَرْبِطَ النَعامَةِ مِنّي لَقِحَت حَربُ وائِلٍ عَن حِيالِ(١٠)

---

(١) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٧.

(٢) المرجع نفسه، والصفحة.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٠٠.

(٤) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٢.

(٥) صرف (تغلب) للضرورة .

(٦) المرجع نفسه ص١٩٧.

(٧) صرف (تغلب) للضرورة .

(٨) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٧.

(٩) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٩.

(١٠) صرف (تغلب) للضرورة .

- علاقة التتابع:

وتعّد من أبرز العلاقات الحجاجية التي تؤدي إلى ترابط النَّص وانسجام أجزائه، حيث "توفر العلاقة التتابعية للخطاب تطوره، وتناسق أفكاره، لأنها تجمعه على وتيرة واحدة في الشكل والمضمون، فهي ليست على مستوى الأحداث والأفعال فقط، وإنما على مستوى الأفكار"(١).

ومن أبرز الروابط اللغوية التي تُعبِّر عن علاقة التتابع حروف العطف مثل: (الواو) و(الفاء) و(ثُمَّ)، حيث يعمد الشاعر من خلالها إلى الربط بين الأحداث المتتابعة أو الأفكار الموجودة بالأبيات أو على مستوى البيت الواحد، بقصد تقوية الحجج وتوجيها نحو نتيجة واحدة أو مقصد واحد، ظاهر أم خفي، ومن ذلك قول الحارث(٢):

قَـــد تَجَنَّبـــتُ وائِـــلاً كَـــي يُفيقـــوا فَأَبَـــت تَغلِـــبٌ عَلَـــيَّ اِعتِزالـــي

فأنـــابوا إلـــيَّ كـــي يقتلـــوني وأطـــاعوا مقالـــة الجهّـــال

وَأَشـــابوا ذُؤابَتـــي ببُجَيـــرٍ قَتَلـــوهُ ظُلمـــاً بِغَيـــرِ قِتـــالِ

فالناظر في الأبيات يلحظ تتابعا بين الأحداث، فبداية الأحداث هي تجنب الشاعر للحرب التي من شأنها أن تنشئ الفرقة والضعف بين أبناء العمومة، فأبت تغلب عليه هذا الاعتزال، ورجعوا إليه كي يقتلوه، وأطاعوا مقالة الجهال، وأشابوا رأسه بعد مقتلهم لبجير ظلمًا في غير موقف القتال، وتأتي الروابط الحجاجية المتمثلة في (الواو) و (الفاء) للربط بين الأبيات المتتالية، وكذلك بين شطري البيت الواحد، ربطًا يؤسس وحدتها جميعا، موجهة إياها نحو نتيجة واحدة ضمنية هي مقصد الشاعر من الأبيات الثلاثة، وهي إثبات الظلم الحاصل من قبيلة تغلب وقوة تجنيها وبغيها عليه.

وقد وظف الحارث الطاقة الحجاجية للرابط (الفاء) التي من شأنها إفادة الترتيب والتعقيب للربط بين الحجج في أكثر من موضع في القصيدة، و(الفاء) من الروابط الحجاجية المدرجة للنتائج؛ فيأتي الشاعر بالحجة، ثم يتبعها بالنتيجة متصلة باللام، مما يحدث توجيها للأقوال نحو النتيجة داخل السياق الواحد، ومن ذلك قوله(٣):

يـــا بنـــي تَغلِـــبٍ خُـــذوا الحِـــذرَ إنّـــا قـــد شَـــرِبنا بِكَـــأسِ مَـــوتٍ زُلالِ(٤)

فاشـــرَبوا كَأسَـــها المَريـــرَةَ صِـــرفاً حـــانَ مِـــنكُم تَصَـــرُّمُ الآجـــالِ

يـــا بنـــي تَغلِـــبٍ سَـــتَلقون مِنّـــا نَطحَـــةً تَســـتَبيحُ غُـــرَّ الحِجـــالِ(٥)

---

(١) محمد عرابي: العلاقات الحجاجية في القرآن الكريم، (رسالة دكتوراه)، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، الجزائر، ٢٠١٣/٢٠١٤م، ص٦٢،٦٣.

(٢) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٣، ١٩٤.

(٣) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٦.

(٤) صرف (تغلب) للضرورة .

(٥) صرف (تغلب) للضرورة .

ففي هذا الأبيات يصل الرابط (الفاء) بين القول أو الحجة (قد شربنا بكأس موت زلال) والنتيجة المتمثلة في البيتين التاليين، مما يفيد تقوية الحجة المعتمدة هنا، وهي حجة (الاستحقاق)، وتوجيه سياق الحجاج بالأبيات إلى النتيجة العامة التي يقصد إليها الشاعر، وهي إقناع المتلقي أن الحرب التي يعتزم خوضها ضد هؤلاء التغلبيين ما هي إلا حدث تابع وردة فعل على ظلمهم إياه وبغيهم عليه وقومه.

كما يظهر الترابط بين الأبيات السابقة على مستوى الأفعال كذلك، حيث التتابع الزمني من الماضي في قوله (شربنا) إلى الحاضر (فاشربوا) فالمستقبل (ستلقون).

ومن المواضع التي وظف فيها الشاعر هذا الرابط الحجاجي (الفاء) للربط بين الأقوال والنتيجة، على نحو يلزم القوة الحجاجية للحجة المعتمدة في الأبيات، ذلك الموضع الذي يقول فيه[١]:

سائِلوا كِندَةَ الكِرامَ وبَكْرا وَاِسأَلوا مَذحِجاً وَحَيَّ هِلالِ(٢)

إِذ أَتَونا بِعَسكَرٍ ذي زُهاءٍ مُكفَهِرِّ الأَذى شَديدِ المَصالِ

فَقَرَيناهُ حينَ رامَ قِرانا كُلَّ ماضي الذُبابِ عَضْبِ الصِقالِ

فالشاعر هنا يذكر حاله عند ملاقاته لجيش الأعداء، ويحدد بدقة صفات هذا الجيش، فهو شديد الضراوة والوثوب على أقرانه، فما كان من الشاعر وقومه إلا أن أكرموا وفادتهم بكل سيف قاطع شديد البتر، وقد وصلت (الفاء) بين الأقوال أو الحجج في البيتين الأول والثاني والنتيجة في البيت الأخير، والشاعر يحتج من خلال الأبيات الثلاثة لنتيجة ضمنية يقصد إليها، وهي قوته وشدة بأسه محاولا بذلك إرهاب قبيلة تغلب وتخويفهم.

ويأتي توظيف صيغة الأمر في قوله: (سائلوا ... واسألوا) لتأكيد هذه النتيجة، حيث أفاد استعمالها – إضافة إلى استعلاء الحارث بن عباد واعتداده بذاته – تأكيد معاني الإرهاب وتثبيتها؛ فقد أحال الشاعر أعداءه على من يتوجهون إليه بالسؤال، وهم تلك القبائل التي جرَّبت قتاله، وخبروا طعنه، وذاقوا بأسه، وعلموا ما قد يكون خفي عليهم من أمره، وعندما يخبرونهم يدركون – بما لا يدع مجالا للشك – حقيقة هذا الشاعر وقومه الفرسان الشجعان.

ويعتمد الحارث كذلك على بعض الروابط الحجاجية للربط بين الأقوال بما يفيد تماسكها، وتوجيهها إلى النتيجة التي يريدها، ومن ذلك قوله[٣]:

فَلَقَد تَلحَقُ البَريءَ دَمُ الحَر ب وَتُردي بِالأَصلَحِ المُختالِ

---

(١) ديوان الحارث بن عباد، ص٢٠٧، ٢٠٨.

(٢) صرف (مذحجاً) للضرورة .

(٣) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٧، ١٩٨.

وَتعـــــاطى أهـــــلَ النُهـــــى فَتَـــــراهُم عِنـــــدَ جَـــــدِّ الأمـــــورِ كَـــــالأَعزالِ

ثُـــمّ تَســـمو إلـــى الخَريـــدَةِ حَتّـــى لا تُـــواري مَواضِـــعَ الخَلخـــالِ(١)

فالأبيات السابقة تحتوي على عدة حجج مختلفة تواصلت فيما بينها عن طريق الربط الحجاجي بـ(الواو) و (ثم) لتؤدي جميعها إلى نتيجة واحدة ضمنية، هي أن الحرب في المجتمع الجاهلي لا تفرق بين القريب والغريب، ولا الجاني والبريء، ولا الرجل والمرأة.

٤- علاقة السببية:

وتعد من أبرز العلاقات الحجاجية "وهي في حقيقة الأمر ضرب مخصوص من العلاقات التتابعية، إذ يحرص المتكلم على ربط الأفكار والوصل بين أجزاء الكلام دون الاكتفاء بتلاحق عادي بينهما وتتابع طبيعي يجعل الأحداث والأفعال أو الأفكار والأحكام متسلسلة متجاوبة، بل يعمد إلى مستوى أعمق من العلاقة، فيجعل بعض الأحداث أسبابا لأحداث أخرى، ويسم فعلا ما نتيجة متوقعة لفعل سابق، ويجعل موقفا معينا سببا مباشرا لموقف لاحق"[٢]، والروابط الدالة على تلك العلاقة هي روابط من قبيل: لأنَّ، لذا، فإنَّ، وكذلك كافة أدوات التعليل.

وتتجلى هذه العلاقة في أبيات كثيرة من قصيدة الحارث، وظف فيها الرابط (لام التعليل) للربط بين مصراعيها، على نحو يسوغ لكل بيت من هذه الأبيات سببا ونتيجة، ويلزم القوة الحجاجية لكافة الحجج المعروضة فيها، بما يؤكد وحدتها جميعًا.

وتعد (لام التعليل) من الروابط الحجاجية المدرجة للحجج، بمعنى أن الشاعر يأتي بالنتيجة أولاً، ثم يتبعها بالحجة متصلة باللام، فهي كما يذكر الزركشي في إفادتها معنى التعليل "يصلح موضعها (من أجل) كقوله تعالى (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)[٣] أي من أجل حب الخير"[٤].

ويتضح ذلك في أبيات كثيرة من القصيدة منها قوله[٥]:

قَرِّبـــــا مَـــــرْبِطَ النَعامَـــــةِ مِنّـــــي قَرِّباهـــــا لِتَغلِـــــبَ الضُـــــلّالِ

(١) الخريدة من النِّسَاءِ: البِكْرُ الَّتِي لم تُمْسَسْ قَطُّ. ينظر: تاج العروس، ج٥، مادة (خرد).

(٢) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٣٢٧.

(٣) سورة العاديات، الآية (٨).

(٤) بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ص٣٤٠.

(٥) ديوان الحارث بن عباد، ص٢٠١.

وقوله[١]:

قَرِّبـــــا مَـــــرْبِطَ النَعامَـــــةِ مِنّـــــي لِبَجَيـــــــرٍ مُفَكِّـــــكِ الأَغـــــــلالِ

وقوله[٢]:

قَرِّبـــــا مَـــــربِطَ النَعامَـــــةِ مِنّـــــي لِجَـــــــوادٍ يَجـــــــودُ بْـــــالأموالِ

وقوله[٣]:

قَرِّبـــــا مَـــــربِطَ النَعامَـــــةِ مِنّـــــي لِلشـــــريفِ المُتَـــــوَّجِ المِفضـــــالِ

وقوله[٤]:

قَرِّباهـــــا لِحَـــــيٍّ تَغلِـــــبَ شوســـــاً لِإعتِنـــــاقِ الكُمـــــاةِ يَـــــومَ المجـــــالِ

وقوله[٥]:

قَرِّباهـــــــا لمُرهَفـــــــاتٍ حِـــــــدادٍ لِقِـــــراعِ الكهـــــولِ يَـــــومَ النِـــــزالِ

فالشطر الأول في هذه الأبيات (قربا مربط النعامة مني) يمثل نتيجة هي إعلان الحرب على قبيلة تغلب؛ "وتوشك إشارة الحارث بن عباد أن تكون بقصرها وتكرارها (قربا مربط النعامة مني) بلاغا حربيا يعلن النفير العام – بلغتنا المعاصرة – فعلى كل من يسمعه من قومه أن يلبس جلد النمر فقد هاجت الحرب من جديد"[٦]، وقد وظف الشاعر لام التعليل للربط بين هذه النتيجة المعلنة، وأسبابها وأسبابها المحددة في كل شطر من الأشطر المقابلة، على نحو يحقق الوحدة والتماسك على المستوى الأفقي للأبيات، حيث الربط بين أجزاء البيت الواحد ،لتصبح قربا من أجل محو العار الذي لحق بالقوم، وقربا من أجل بجير، وقربا من أجل الحرب، وقربا من أجل الثأر.

---

(١) المرجع نفسه، ص٢٠٣.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٠٤.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٠٥.

(٤) المرجع نفسه، ص٢٠٦.

(٥) ديوان الحارث بن عباد، ص٢٠٣-٢٠٦.

(٦) وهب أحمد رومية: شعرنا القديم والنقد الجديد، منشورات عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مارس، ١٩٩٦م، ص٢٢١ .

وثمة أبيات أخرى ربطت علاقة السببية بين السبب والنتيجة فيها، ولكن من دون الاعتماد على التركيب التعليلي ومن ذلك قول الحارث[١]:

قَرِّبـــــا مَـــــرْبِطَ النَعامَـــــةِ مِنّـــــي ذهـــب الـــدهر صـــاحِ بالمفضـــال

وقوله[٢]:

قَرِّبـــــا مَـــــرْبِطَ النَعامَـــــةِ مِنّـــــي إنّ قَتـــــلَ الكَـــــريمِ غَيَّـــــرَ حـــــالي

وقوله[٣]:

قَرِّبـــــا مَـــــرْبِطَ النَعامَـــــةِ مِنّـــــي لا يُبـــــاعُ الرِجـــــالُ بَيـــــعَ النِعـــــالِ

وقد جاء التكرار الأسلوبي لقوله: (قربا مربط النعامة مني) ليؤكد على الوحدة والتماسك بين الأبيات وبعضها على المستوى الرأسي، ولما كان تكرار "لفظة ما، أو عبارة ما، يوحي بشكل أولي بسيطرة هذا العنصر المكرر على فكر الشاعر أو شعوره أو لا شعوره، ومن ثم فهو لا يفتأ ينبثق في أفق رؤياه من لحظة لأخرى"[٤] فقد جاء هذا التكرار موحيًا بسيطرة فكرة إدراك الثأر على ذهن الشاعر، كما جاء الوزن الشعري منسجما مع هذه الفكرة ومؤكدا عليها؛ وذلك لأن "موسيقى الشعر بنوعيها (الداخلية والخارجية) تسهم في مساعدة الشاعر على الإقناع، وتيسر له حمل المتلقي على الإذعان"[٥]؛ ومن ثم كان بحر الخفيف الأكثر ملاءمة لموقف الاحتشاد والتأهب من أجل إدراك الثأر، لما يتسم به هذا البحر من خفة وسهولة "وهو ساطع النغم، بارز الموسيقى ... ويصلح للجدل وللترديد وللسرد، ويمتلئ بالروح الملحمي"[٦].

وجاءت القافية كذلك داعمة لفكرة إدراك الثأر؛ فهي اسمية على طول النص، والاسم يفيد الثبات، مما يدل على تمسك الحرث بفكرة الثأر والإصرار عليه، وقد اتخذ الشاعر حرف اللام رويا لقصيدته، وهو حرف يكثر مجيئه رويا[٧]، ويشكل اختياره هنا إضافة حجاجية مهمة، فاللام حرف

(١) ديوان الحارث بن عباد، ص٢٠١.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٠٥.

(٣) المرجع نفسه، والصفحة.

(٤) علي عشري زايد: عن بناء القصيدة العربية الحديثة، مكتبة ابن سينا، ط٤، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٥٨.

(٥) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، ص١٢٦.

(٦) صابر عبد الدائم: موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور، مكتبة الرشد ناشرون، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص١٢٥.

(٧) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، الأنجلو المصرية، ط٧، ١٩٩٧م، ص٢٤٨.

مجهور، يتسم بالوضوح، والقوة في السمع، و يشبه ترديده في نهاية كل بيت قرع الطبول إعلانا ببدء الحرب ضد قبيلة تغلب.

٥- علاقة الاقتضاء:

وتتميز من كافة العلاقات الحجاجية السابقة بكونها "تجعل الحجة تقتضي النتيجة اقتضاء، والعكس صحيح، بحيث تغدو العلاقة ضربا من التلازم بين الحجة والنتيجة"(١).

وتعد أدوات الشرط على اختلافها أقدر الروابط على إنتاج هذه العلاقة، بما توفره هذه الأدوات من اقتضاء شكلي على مستويين: مستوى أول بين السبب/الشرط والنتيجة/الجواب، ومستوى ثان بين (السبب/الشرط والنتيجة/الجواب) معا باعتبارهما سببا أو حجة واحدة، وبين نتيجة مصرح بها أو ضمنية تستنتج من الخطاب.

وتتضح هذه العلاقة في قول الحارث(٢):

ثَكَلَتْنـــــي عَـــــن المَنِيَّـــــةِ أمّـــــي وَأتاهـــــا نَعِـــــيٌّ عَمّـــــي وَخـــــالي

إن لَـــم أُشْـــفِ النُّفـــوسَ مِـــن تَغلِـــبِ الغَـــدْ رِ بِيَـــومٍ يُـــذَلّ بُـــزْلَ الجِمـــالِ

ففي هذين البيتين وظف الشاعر الرابط (إن) للربط بين النتيجة/الجواب الذي يمثله البيت الأول، والسبب/الشرط الذي يمثله البيت الثاني، والبيتان معا يمثلان سببا لنتيجة ضمنية، هي تهديد وتخويف قبيلة تغلب.

في الإطار ذاته يأتي قول الشاعر(٣):

لَســـتُ لِلحِصـــنِ إن شَـــربتُ شَـــراباً أو تُبـــيحُ الـــديارَ مِـــنكُم رِجـــالي

فالشاعر هنا يستخدم الرابط (إن) للربط – على مستوى أول – بين النتيجة/الجواب (لست للحصن) ، والسبب/الشرط (إن شربت شرابا أو تبيح الديار منكم رجالي)، وعلى مستوى ثان للربط بين الجواب والشرط معا –باعتبارهما سببا– ونتيجة ضمنية، وهي إرهاب الشاعر وتخويفه لأعدائه التغلبيين.

وقد حكمت العلاقة ذاتها البيتين الأخيرين من الأبيات التي يقول الحارث فيها(٤):

رُبَّ جَـــيشٍ لَقيتُـــهُ يَمطُـــرُ المَـــو تَ عَلـــى هَيكَـــلٍ خَفيـــفِ الجِـــلالِ

(١) سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص٣٣٥.

(٢) ديوان الحارث بن عباد، ص١٩٥.

(٣) المرجع نفسه، ص١٩٧.

(٤) ديوان الحارث بن عباد، ص٢٠٧.

وَهُمـــــامٍ بِفاصِـــــلِ السَـــــيفِ فِيـــــهِ إذ تَســـــاقى الكُمـــــاةُ كَـــــأسَ النِهـــــالِ
قاصِـــــداً نَحـــــوَ كَبشِـــــهِم لا أُبـــــالي فـــــي طِـــــرادٍ لَقيتُـــــهُ أو نِـــــزالِ
إن طِـــــــرادا لَقيـــــــتُهُم فَطِـــــــرادٌ بِرِعـــــــالٍ أو إلفِهـــــــا بِمِثـــــــالِ
أو نِـــــــزالاً لَقيـــــــتُهُم فَنِـــــــزالٌ مُصـــــلَت السَـــــيفِ لابِســـــاً سِـــــربالي

فالشاعر يستخدم في البيت قبل الأخير الرابط (إن) لتوجيه السبب (إن طرادا لقيتهم) نحو النتيجة (فطراد)، وكذلك وجه هذا الرابط نفسه والمقدر بعد أو السبب في البيت الأخير (أو نزالا لقيتهم) إلى النتيجة (فنزال)، وقد أدى استعمال الشاعر لهذا الرابط إلى توجيه نظر المتلقي المستهدف، وهم قبيلة تغلب، إلى قوته وشدة بأسه في الحرب وأنه لا يرهب الأعداء، ولا يعبأ بقتالهم والوثوب عليهم على أية حالة كانوا، فهو شجاع ذو بأس وخبرة في شئون الحرب، والأبيات جميعها تؤدي إلى نتيجة ضمنية يقصدها الشاعر ، وهي إرهاب قبيلة تغلب.

وبالنظر في مرثية الحارث نجد أنها قائمة في مجملها على علاقة الاقتضاء، فكافة الحجج التي حشدها الحارث في نصه تتصل بالنتائج الرئيسة الثلاث المرصودة للقصيدة؛ وهي رثاء بجير وتخليد ذكره، وإقناع الحارث قومه بخوض الحرب معه لإدراك ثأر بجير ، وإرهاب قبيلة تغلب قبيل البدء في الحرب.

الخاتمة

١- إن الحجاج قابل للتطبيق على الشعر، فلا يخلو نص شعري من حجاج، ولكنه - أي الحجاج - لا يكون مقصودا لذاته، وإنما الهدف منه توضيح الرؤية حول أمر ما، وإيجاد وجهة نظر مشتركة وقناعة حوله.

٢- يوظف النص الشعري الخصائص المنطقية في الحجاج مثلما يوظف الوسائل اللغوية، فهو يعمل على استمالة المتلقي والتأثير فيه ومحاولة إقناعه من خلال توظيف الإمكانيات العقلية واللغوية، ولا تنفصل إحداهما عن الأخرى.

٣- إن التحليل الحجاجي يتناول الموضوع بطريقة تكاملية، فهو ينفتح على غيره من المناهج والمعارف من أجل التعمق في النص للكشف عن تقنيات حجاجه وكيفية عرضها.

٤- كشفت الدراسة أن الخصومة التي كانت بين قبيلة الشاعر وقبيلة تغلب وما ترتب عليها من نشوب حرب البسوس كانت السبب الرئيس في كثرة الوسائل الحجاجية في شعر الحارث، فقد حاول من خلال استعماله تقنيات حجاجية متنوعة الحجج أن يدعم موقفه وقومه في هذه الحرب.

٥- أظهرت الدراسة اعتماد الحارث بن عباد على آلية التكرار في حجاجه الشعري اعتمادا لافتا للنظر، حيث أفاد منه كثيرا في بلورة رؤيته وتأكيد موقفه، كما جاء مناسبا لموضوعاته الحماسية وما تقتضيه من إنشاد وحماس، وقد أضفى هذا التكرار على الحجاج صبغة جمالية إلى جانب وظيفته الإقناعية في الاستنفار والإثارة والحث على الحرب والقتال.

٦- وظف الشاعر الروابط والعوامل الحجاجية من أجل توجيه حججه وترتيبها، مما أدى إلى زيادة قوة تأثيرها في المتلقي؛ لأن حسن الصياغة والترتيب للغة الحجة يجعل المتلقي أكثر تهيئة لقبول مضمونها.

ثبت المصادر والمراجع

أولًا : القرآن الكريم.

ثانيًا : المصادر والمراجع:

- أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري: مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة ، بيروت، لبنان، (د.ت).

- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب، دار صادر للنشر والتوزيع، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

- أبو عبيدة معمر بن المثنى: شرح نقائض جرير والفرزدق، تحقيق: محمد إبراهيم حور، وليد محمود خالص، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات، ط٢، ١٩٩٨م.

- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

- أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.

- أبو هلال العسكري: الصناعتين(الكتابة والشعر)، علق عليه/ محمد أمين الخانجي، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، ط٢، (د.ت).

- أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال، دار الفكر، بيروت، (د.ت).

- أحمد إسماعيل أبو يحيى: الخيل في أشعار الجاهليين والإسلاميين، راجعه/ ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

- أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

- الحارث بن عباد: الديوان: جمعه وحققه/ أنس عبدالهادي أبو هلال، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث- المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

- المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي: أمثال العرب، تحقيق/إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- آمال يوسف المغماسي: الحجاج في الحديث النبوي (دراسة تداولية)، الدار المتوسطة للنشر، ط١، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

- بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق/ محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

- جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣،١٩٩٢م.

– حازم القرطاجاني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق/ محمد الأمين بن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط٣، ٢٠٠٨م.

– حافظ إسماعيل علوي: الحجاج مفهومه ومجالاته (دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة)، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

– حمدي منصور جودي: بنية الخطاب الحجاجي في كليلة ودمنة لابن المقفع، رسالة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

– خير الدين بن محمود بن محمد الزركلي الدمشقي: الأعلام ، دار العلم للملايين، ط١٥، أيار / مايو ٢٠٠٢م.

– زهير بن أبي سلمى: الديوان: شرحه وقدم له/ علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

– سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي (بنيته وأساليبه)، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط٢، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

– شكري المبخوت: إنشاء النفي وشروطه النحوية والدلالية، مركز النشر الجامعي، تونس، ط١، ٢٠٠٦م.

– شكري المبخوت: نظرية الحجاج في اللغة، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، فريق البحث في البلاغة والحجاج.

– شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤ هـ.

– صابر عبد الدائم: موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور، مكتبة الرشد ناشرون، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

– ضياء الدين ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق/ كامل محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٨م.

– طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

– طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ٢٠٠٠م.

– عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه/ محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، (د.ت).

– عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق/ محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، (د.ت).

– عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

– عبد الهادي بن ظافر الشهري: إستراتيجيات الخطاب(مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.

- عبداللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
- عبدالله صولة: الحجاج أطره ونظرياته، من خلال مصنف في الحجاج :الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتيكاه، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، فريق البحث في البلاغة والحجاج، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإسلامية، تونس، (د.ت).
- عبدالله صولة: الحجاج في القرآن (من أهم خصائصه الأسلوبية)، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٧م.
- عبدالله صولة: في نظرية الحجاج: (دراسات وتطبيقات)، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط١، ٢٠١١م.
- عزالدين الناجح: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين، صفاقس، ط١، ٢٠١١م.
- علي عشري زايد: عن بناء القصيدة العربية الحديثة، مكتبة ابن سينا، ط٤، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي: نقد الشعر، مطبعة الجوائب – قسطنطينية، ط١، ١٣٠٢هـ.
- قدور عمران: البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني ، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط١، ٢٠١٢م.
- محمد أحمد جاد المولى/علي أحمد البجاوي/ محمد أبو الفضل إبراهيم: أيام العرب في الجاهلية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، (د.ت)
- محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، مصر، ٢٠١٤م.
- محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الزَّبيدي :تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق/ مجموعة من المحققين، دار الهداية، (د.ت).
- محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة (بحث في بلاغة النقد المعاصر)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٨م.
- محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانيّة، دار الثقافة، الدار البيضاء ، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- محمد عبد الباسط عيد: في حجاج النص الشعري، أفريقيا الشرق، المغرب،٢٠١٣ م.
- مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب (دراسة في تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي)، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
- مهدي المخزومي: في النحو العربي (نقد وتوجيه)، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

– موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر بن الحسن الجواليقى: شرح أدب الكاتب لابن قتيبة، قَدَّمَ له/ مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت). –نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر، منشورات مكتبة النهضة،ط٣، ١٩٦٧م.

– وهب أحمد رومية: شعرنا القديم والنقد الجديد، منشورات عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مارس، ١٩٩٦م،

المجلات العلمية والدوريات:

– حسين جمعة: الانتماء وظاهرة القيم العربية في القصيدة الجاهلية، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع٦٣، أبريل ١٩٩٦م

– سامية الدريدي: الحجاج مولدا من مولدات الجمال في الشعر ، مجلة مجمع القاسمي للغة العربية، ع١٥، ١٤٤١هـ/٢٠٢٠م.

– عبد العزيز مصباحي: الحجاج ووظائفه التداولية، مجلة علوم اللغة وآدابها، جامعة الوادي.

– ياسمين سعد الموسى، عائشة محمد عثمان مصطفى: الأفعال الكلامية في قصيدة الحارث بن عباد؛ قربا مربط النعامة مني (دراسة لسانية تداولية)، مجلة المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، المملكة الأردنية، محرم١٤٤٣هـ/آب٢٠٢١م.

فهرس موضوعات البحث

م	الموضوع	الصفحة
	ملخص البحث	٣٩٥
١	المقدمة:	٣٩٦
٢	التمهيد: منطلقات تأسيسية ومفاهيم نظرية:	٣٩٨
٣	المبحث الأول: الطرائق الاتصالية للحجاج في شعر الحارث.	٤٠٦
٤	المبحث الثاني: الطرائق الانفصالية للحجاج في شعر الحارث.	٤٣٢
٥	المبحث الثالث: العلاقات والروابط والعوامل الحجاجية في شعر الحارث.	٤٣٨
٦	خاتمة:	٤٥٤
٧	ثبت المصادر والمراجع:	٤٥٥
٨	فهرس موضوعات البحث:	٤٥٩